حكايات عن السلاطين

صادق

بقلم

ادمون صبري

ادمون صبري

درس في السياسة

حكايات عن السلاطين

الطبعة الاولى

١٩٦٩

طبع بمطبعة دار الجاحظ ـ بغداد

لو احد يمنحني الامان
لو كنت أستطيع ان اقابل السلطان
قلت له يا سيدي السلطان
كلابك المفترسات مزقت ردائي
يا حضرة السلطان
لانني اقتربت من اسوارك الصماء
لانني ..
حاولت ان اكشف عن حزني وعن بلائي
ضربت بالحذاء ..
ارغمني جندك ان آكل من حذائي ..
يا سيدي
يا سيدي السلطان

نزار قباني

درس في السياسة

واخيرا ارتحل السلطان العجوز الى جوار ربه ، استغرقت ضيافته على هذه الدنيا الفانية زهاء ٧٠ سنة امضى نحو نصفها في حكم رعية ما .

كان في اخريات أيامه بقايا سنديانة منهوشة الساق يابسة الاغصان ذاوية مترهلة . كان رجلا كبير الهيكل عظيم الراس تتوسط وجهه العريض عينان لامعتان خضراوان تتطلعان في انتباه تحت عمامة اصفهانية مزركشة ذات سبائب وكأنها عمامة الشاه عباس . لقد استلقى على سريره وكانت استلقاؤه الاخيرة . اذ لم ينهض منها حيا بل حمل ميتا الى تابوته وسط النواح والعويل وشق الجيوب . فاقيمت المناحات في طول السلطنة وعرضها ووزعت الاطعمة وتطوع عدد كبير من النساء والرجال في لبس السواد حدادا على السلطان الراحل .

لقد ذهب كما ذهب من قبله السلاطين ، وما هي الا أيام حتى اختفت نارجيلته ومسابحه الكهرمانية وطنافسه الموشاة بالحرير وخواتمه الياقوتية واللؤلؤية والذهبية لو شاء أن يضعها جميعا في اصابعه لاختفت الاصابع وضاع على الرائي لونها وشكلها . اختفت كلها وراء قفل كبير لتكون ذكرى بعد مئات الاعوام .

جلس على العرش السلطاني نجله الاكبر الذي يبلغ الثلاثين من العمر مفتتحا صفحة جديدة لا يدري خفاياها وخباياها احد ، انما العادة ان يفرح الناس بكل جديد . فقد سأموا الى حد القرف من رؤية السلطان الراحل وتركزت صورته في اذهانهم الى حد الاشباع حتى ان باستطاعة رعيته من الشيوخ والاطفال أن يعددوا الالوان التي تشتمل عليها عمامته وانواع العصى التي يتوكأ عليها في سيره والديباجات المألوفة التي يذيعها على الناس في الاعياد والمواسم فقد وعاها الطفل وجد الطفل دون أن يضاف اليها حرف واحد أو يحذف منها حرف واحد فهي هي عندما يعزي بوفاة وجيه أو قائد أو يهنيء بقدوم عيد أو يواسي على نكبة أو يولم في الافراح أو يستقبل سلطانا من سلاطين الجيران .

لقد حمل نعش السلطان الى مدفن أجداده في ظاهر المدينة وهو مدفن مورق الاشجار كثير الرياحين ينسكب فيه الماء من كل جانب، فما أن تذبل زهرة حتى تزدهر زهـــرات وما أن يجف غصن حتى تخضر أغصان ، فكان المساكين من رعيته الذين حرموا الحـــدائق والتمتع بشذى الازهار والمناجع الندية الظليلة يفزعـون الى المدفن في هجيرة الظهر فيستلقون على الحشائش ويغفون في قيلـولة الصيف اللاهبة .

★ ★ ★

جلس السلطان الجديد بعد أيام على عرش الســلطنة الخالد ، وهو شاب وسيم موفور الصحة داكن الشعر عريض الوجه متباعـد الحاجبين يحاكي جماله جمال النساء لولا شعرات سوداء ملســاء قليلة على عارضيه وفوق شفته .

اكتسحت صورته الجديدة صورة والده العجوز كما أنهت عهد السعال والنحنحة والطقطقة بالمسابح وتأريث النـــار في المواقد والتطيب بالعطور والتطير من المأكولات الدسمة والحـلاة حيث كان السلطان الراحل يشكو آلام المعدة والسكر وضغط الدم وخفقـان القلب . اختفت النارجيلات واختفت التبوغ .

السلطان الجديد لا يسعل ولا يتنحنح ولا تعترض صوته بحـة ولا يحدق في الاشياء الناعمة ولا يلهث ولا يعطس . لقـــد اختفت السنديانة الشائخة الهرمـــة وبرزت في مكانها النخلة الفتيـــة الخضراء . ولكن رؤوسا ثلاثة عتيقة مجللة بالعمــائم لم تتزحزح من مكانها هي رؤوس مستشاري السلطان الراحل .

كان أحدهم مختص بالامور الداخلية والثاني في الامور الماليــة والثالث في الامور الخارجية . عقد هؤلاء الشيوخ الثـــلاثة أول اجتماع مع السلطان الشاب ، فجلسوا بين يديه وهو في عمـــر أبنائهم . جلسوا مطرقي الرؤوس حيارى مفتعلين الحـزن والمرارة على السلطان الراحل الذي عملوا معه حقبة طويلة من العمر . كلهم يذكر يوم مولدالسلطان الجديد فقدحملوه طفلا بين اذرعهم وامسكوا بأنامله الصغيرة عندما أخذ يدرج في المشي وعلموه وهـــذبوه ايام

بفاعته وطالما راودت خواطرهم امنية عزيزة لم يفصحوا عنها جهارا حتى ان تفوز احدى بناتهم بحبه فيعلق قلبه بها ويتزوجها فتتصاهر اسرة السلطان باسرة المستشار ويكون الحفيد نصفه مستشارا ونصفه سلطانا . ولكن لم يقع شيء مثل هذا فقد اعتكف السلطان على تثقيف ذاته فتعلم على نفسه بما لا يدري احد فيم تفقه من العلوم .

جلس المستشارون الثلاثة في حضرة السلطان الجديد في بهو منعزل قليل الرياش والفخامة قلما يصله أحد . كان السلطان الجديد يطالع فيه دروسه وكتبه ويدون افكاره ويسبح في تأملاته الذاتية التي لا يعرف كنهها احد . كان ثمة قصاصات ورق وحبر وكتب مبعثرة على المناضد غير مذهبة ولا مطرزة ولا تحمل شعارا ما وأشياء اخرى زهيدة القيمة غامضة المعنى ، فتضايق المستشارون من تفاهة المكان الذي يذكرهم بقاعة من قاعات الدرس ، بل انهم شكوا مع أنفسهم خشونة الكراسي التي يقتعدونها .

قال كبيرهم وهو مستشار الشؤون الداخلية : « اننا ننتظر من سيدنا السلطان أنعم الله عليه بالعافية وبالعمر المديد وجعل عهده مقرونا بالسؤدد والمجد أن يرشدنا ويهدينا سواء السبيل بما اسبغ عليه من الحكمة التي يتحلى بها السلاطين اكثر من سائر العباد » .

فهز السلطان رأسه بامتنان ولم يجب ، وما أن مضت فترة زمنية اخرى حتى انبرى مستشار الامور المالية قائلا : « أن الحكمة التي وعاها سلطاننا الراحل طيب الله ثراه فدانت له البلاد بالطاعة والولاء نلمح طلائعها في سمات السلطان الشاب الذي ما حضرنا للمثول بين يديه الا سعيا وراء تلمس حكمته » .

صمت السلطان ولم يجب . ثم انبرى مستشار الامور الخارجية فقال بنبرة حزينة متواضعة مكشوفة الزيف وكأنه قد فقد بعض صبره وتاق الى سماع صوت السلطان الشاب وهو يخاطب مستشاريه لاول مرة :

« سيدي منك الامر ومنا الطاعة انت سلطان البلاد وراعيها وحاميها ورجلها الوحيد . نحن آذان صاغية لتلقي الاوامر والارشادات فنعمل ما يمليه علينا الواجب كما عملنا في خدمة

الوالد طيب الله ثراه واسبغ على روحه السكينة واشتمله برحمته الذي لا تحد رحمته حدود » .

نهض السلطان في آخر الامر واستعد للكلام فأرهف المستشارون آذانهم لسماع صوته وتقدير قوة شخصيته ومقدار بأسه وحزمه فالصوت ينبيء عن الكثير من دخائل النفوس . قال :

« ابدأ أولا بمخاطبة مستشارنا للامور الداخلية » فأتى المستشار بحركة تململية تؤذن باهتمامه وقد بدا على وجهه الارتياح اذ كانت نبرات السلطان هادئة وقورة تصدر عن شخص لا يفتقر الى الحكمة والتواضع واستمر يقول « ارى ان رعيتنا يزداد عددهم شهرا بعد شهر وسنة بعد سنة ، وانهم في خلال عشرة اعوام سيبلغون الضعفين ، والمعلومات المتوفرة لدينا عن المحصولات الزراعية انها تزداد بنسب ضئيلة او بالاحرى انها لا تزداد مطلقا . وأرى أن الشاب القوي القادر على زحزحة حجارة الجبل يعوزه الطعام ويتعرض للهزال والمرض والتسكع في الازقة ، وهناك في بلادنا الكثير جدا من الشيوخ العاجزين عن تحريك أذرعهم يلتهمون الطعام ليطيلوا اعمارهم حيث لا فائدة ترجى منهم . ارى ان هؤلاء عبء علينا ومضيعة لمنتوجاتنا ومعوقا لانعاش الشباب الذي يتوق الى طعام جيد يمد بدنه بالقوة . ان الشيوخ يسلبون طعام الشباب ، فالعملية كما تبدو لي قرصنة يقدم عليها الضعيف في سلب قوت القوي وهذا مناقض لقانون الطبيعة ، فلو اننا أخمدنا أنفاس الشيوخ الذين لا خير فيهم ووفرنا الطعام للشباب لكان ذلك خير للبلد كله . والآن قد تسألني كيف يمكن اخماد انفاس الشيوخ من دون أن تقع فتنة وكيف يمكن ان ينجز مثل هذا الصنيع الفظيع والكبير . انا لا اجيب انما ارجو من مستشارنا للامور الداخلية ان يأتينا صباح الغد بتفاصيل مشروعه لننظر فيه ونطبق ما يمكن تطبيقه . وبالمناسبة ابلغكم جميعا ان الشيوخ الذين لنا بهم صلة القرابة والصداقة أو الذين نحبهم ونعطف عليهم سوف يعفون من اى سوء ولا يصيبهم مكروه أو اذى » .

تنهد المستشارون الثلاثة بارتياح وكأنما ازيح عن صدورهم حمل ثقيل ، وجرت خواطرهم الى السلطة الجديدة التي سوف

يمارسونها وهي تقرير من يموت ومن لا يمـــوت من الشيوخ وهذه السلطة سوف تتيح لهم تكديس ارباح لا يحلم بها احد .

ثم التفت السلطان الى مستشار المالية واخذ يحدثه قائلا :

« يرى مستشارنا للامور المالية ان هذا القصر الشاهق قـــد أسس منذ عهد بعيد ، وانني ولدت فيه وعشت فيه عمري كلـه ولم أعرف قط قصرا سواه ولا حتى منزلا سواه ، وانني قد ألفت غرفه واواوينه وردهاته وشبعت نظرا الى طنافسه ورياشـــه وصحونه وملاعقه . انني لم اعد اطيق العيش فيه بعـــد الآن ، وارغب في التغيير ، كي تتجدد الحياة في عهدي واقطع على نفسي الشعور بالملل . وفوق ذلك فانني مقبـــل على الزواج وخطيبتي تنتظر ان تزف الي وهي مثلي ضاقت ذرعا بهذا القصر الذي يذكرها باحداث محزنة تقبض القلب فتتمنى أن يكون لها قصرا غير هذا تدخلـــه لاول مرة وتدق نعلها على بلاطه قبل اي نعل آخر ، فالقصر والزواج يكلفان مالا ، ولربما سيسألني مستشارنا للامور المالية كيف يمكنـه تدبير المال ولكنني لا اعرف شيئا ولا أود أن اقول شيئا انما اود ان ياتينا صباح الغد بمشروع عن طريقة الحصول على المـــال وذلك للاستعداد لبناء القصر والانفاق على حفلات الزواج » .

فأحنى المستشار رأسه بالايجاب ووعد السلطان أن يفعل كمـا أمر . ثم عقب السلطان قائلا « ان اصدقاءنا واقرباءنا ومعارفنا ومن نحب ونعطف عليهم سوف يعفـــون من الاجراءات التي تترتب على جمع المال ، واي منكم مخول بتقديم القوائم بالاعفاء دون قيـــد او شرط » .

سرت الفرحة في وجوه المستشارين الثلاثة وجرت خواطرهـم مرة اخرى الى المنافع التي يمكن ان يستفيدوا منها في اعفـــاء من يحبون واثقال كاهل من لا يحبون .

ثم التفت السلطان الى مستشاره في الامور الخارجية واخـذ يحدثه مثلما فعل مع زميليه الاولين قال « اننا منذ مئـــات السنين نجاور سلطنات صغيرة قد استحوذت على اجمـل المراعي والمزارع واكثرها غلة ومردودا وهي اقرب منا الى سواحل البحـــار حتى ان شاء احدنا ان يركب سفينة سعى الى التماس موافقتهم ليأذنوا

له ان يصل الى البحر ويمتطي متنه وكانما يمنون علينا منة كبيرة ، وفوق ذلك ان الكثير من ماء انهرنا يتدفق اليهم فيشربونه عذبـــا فراتا بدل أن يرتشفوا مياه البحر المالحة ، وهم يربون على مياهنـا اغنامهم وابقارهم ثم يبيعونها علينا باغلى الاســعار . انني ارى ان ننتزع منهم ما يملكون من خير هو من حقنا ونقوم بتوزيعـــه على رعيتنا كيما يترفه الناس كما يكون بالامكان مد حدودنا الى البحـر فتزداد واردات سلطنتنا ونكون اسيادا عظاما نواجه البحر بدل ان نقبع وراء بيداء مجدبة . وانا لا اقترح اي اسلوب لتنفيذ هـــذه السياسة انما ادعو مستشارنا في الامور الخارجيـــة ان يدرس الموضوع وياتينا بالملاحظات والمخططات صباح غـــد ، وارجو ان تعلموا ان اقرباءنا واصدقاءنا ومن نحب ونحترم واولئك الذين نحزن لفراقهم وموتهم سوف لا يدعون لخوض اية معركـــة لئلا يقتلوا فنبكي عليهم » .

فسرت الفرحة للمرة الثالثة في نفوس المستشارين الثلاثـــة مقدرين الى اي مدى يمكن استغلال مثل هذه الفرص ، وهي تجنيد الناس للقتال . اي يدفعون للموت من يشاؤن ويبقون في سلامـــة من يشاؤن كذلك .

★ ★ ★

انصرف المستشارون الثلاثة وهم تعبون مكدودون يلتقطـون انفاسهم في عسر ، فقد استبقاهم السلطان الجديد ساعات طـوالا واستحيوا ان يدخنوا فاصيبت رؤوسهم بالصداع كما لم توزع اثناء الجلسة اية اطعمة او منعشات او مشروبات كمـــا ان الكراسي التي اقتعدوها كانت من غير حشايا سميكة وليس لهـــا اذرع . وما ان بلغوا بيوتهم حتى اتجهوا الى مضاجعهم ولكن نســـاءهم واولادهم تجمعوا حولهم متساءلين عما جرى مع السلطان الجديد واي نوع من الناس عساه يكون وكان نصيب الفتيات جســيما اذ ارهفن آذانهن لالتقاط الخبر عن السلطان الشاب الجميـــــل . فالمعروف عن السلاطين انهم عجائز كبار معممين بعشرات الاذرع من القماش الملون يسعلون ويتنحنحون وعيونهم المريضة المتعبة تلاحق النســـاء ، ما سمن منهن وما هزل .

قص المستشارون حديثا خاطفا عن السلطان ملتزمين الحذر من كشف الاسرار ، فهم من اتباع من يقول القول المأثور « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » ومع ذلك فقد تركت كلمات المستشارين مع اهلهم آثارا غير مشجعة ، كمن يتوقع عاصفة في ختام يوم هاديء .

وما هي الا ساعات قلائل حتى نشط كل مستشار لقدح زناد فكره في جو عابق بالتبغ والقهوة وشتى المنبهات الغريبة . استعاد كل منهم ذكرياته وخبراته واطلع على سير السلاطين الذين حكموا في الصين والتبت وبلاد الاتراك والتتر والقوزاق والعجم . اطلعوا على شتى انظمة الحكم وشتى الاساليب المتبعة في جمع المال وشتى الحيل والمراوغات المستخدمة في الحروب . وما ان تبلج الفجر حتى دبج كل منهم صفحات كثيرة ضمنها خطته للوصول الى اهداف السلطان .

★ ★ ★

دخلوا على السلطان وكل متأبط حزمة اوراقه ، يمني النفس ان يثير عجب السلطان واعجابه لروعة ما تفتق عنه ذهنه الخصب الوقاد .

قال السلطان بعد ان استقر بهم المجلس جميعا واستوفى كل منهم نصيبه من اللهاث والتنحنح :

« ليبدأ مستشارنا في الامور الداخلية بالقاء خطابه » .

فنهض العجوز المحدودب الذي تحاكي قسماته قسمات الثعلب وشرع يقرأ بنبرة رصينة متهدجة وكأنه يعلن الحرب « ايها السلطان العظيم ذو الحسب والنسب ، لقد درست رغبتكم السامية بروح صادقة وفية والممت ما املك من خبرة وعلم وطالعت ما افادتني مطالعته من كتب السلف الصالح المشتملة على حسن تدبير شؤون الممالك واجتياز الموالج والمسارب وتفادي العثرات والمهالك دون تكديس حقد في قلب او زرع غل في صدر ، فالحكمة ان يصل المرء الى ما يريد بحزم وروية واعمال الفكر .

سيدي اننا ان اردنا ان نخمد انفاس الشيوخ ونوفر الطعام للشعب العامل القوي على الانتاج علينا ان نفعل ذلك بكل حذر

وسرية ومهارة لان المهمة تستهدف ابادة عدة آلاف من النفـــوس . والانسان لن يحزن على شيء قدر حزنه على موت عزيز . لذا يستلزم الامر ان نبتدع الاسلوب التالي : نأتي بسموم بطيئة المفعـول فنلوث بها الاطعمة واللحوم والفواكه والمؤن والبقول وكل ما يدخل جـوف الانسان . نلوث كل شيء في ارجاء السلطنة فتحـــدث الاصابات بالتسمم فيراجع المصابون المستشفيات للعلاج عند ذاك يتفضـــل سلطاننا باذاعة النبأ التالي « ابناء الشعب الكرام ان ثمة مرضـــا مشبوها خبيثا قد احاق ببلادنا ، وهو يصيب في هذه الايام الآلاف من المواطنين الابرياء وان مولانا السلطان دام عزه قد ضحى براحته لمواساة المنكوبين والعطف على المصابين والاشراف بنفســـه على العلاج وقد امر ان تخصص الكثير من القصور والمباني العامة لايواء المرضى كما أمر أن توزع عليهم المساعدات المالية . واننا نعلن للمـلأ ان الاحتياطات ضد هذا المرض قد اتخذت على اكمل وجـه ، فعسى أن تدفع العناية الالهية عنا هذه الجانحة الهوجاء وانا لله وانا اليـه راجعون » .

ثم عقب المستشار بنبرة خافتة مريبة قمينة بداهيـــة حصيف يخشى على اسراره من ان تلتقطها اذن :

« عندما يراجع المصابون المستشفى ننظر في حالة كل واحد ، فان كان شابا ومرغوبا في حياته ووجوده وذا نفع لبلادنا ويملـــك عضلات تهشم الحجر اعطيناه عقارا مضادا للسم فيشفى بعـد ذلك اما الشيوخ والعجزة والمقعدين والمشوهين وغير المرغـــوب فيهم ، فلا يعطى لهم من هذا العقار المضاد انما يعطى لهم عقـــار آخر في نفس اللون والشكل للعقار الاول الا انه من غير مفعول سوى تسكين الالم ولن يكون من الموت بد . ارى ان مثل هذه العملية الجذريـة تستغرق عدة اشهر وهي في الحقيقة عملية تصفية وتنظيف واعادة الشباب الى السلطنة كما عادت بشخص سلطاننا الجديد الهمـــام المقدام . اننا سنستأصل الفاسد والعاجز والمعلول » .

ابتسم السلطان وشكر مستشاره مطريا مواهبه وحذاقتـــه قائلا « انك والحق يقال لنابغة الدهر » فانتفخت اوداج المستشـــار زهوا وعقب يقول « لقد طالعت عشرات الكتب وتقصيت التاريـخ

كله فلم اعثر على شيء يهديني سواء السبيل ولكن خطرت لي هذه الخاطرة وانا اقاوم التعب الذي استبد بي بعد طول التفكير » .

اخذ السلطان مقالة مستشاره بكل احترام ورفعها على رف انيق واعدا ان يطالعها بامعان ويأمر بتنفيذها ثم اتجه الى مستشاره في الامور المالية ورجاه ان يقرأ ما لديه فقام هذا على عجل وشرع يقرأ :

« سيدي السلطان انكم امرتموني ان اتدبر قضية كبيرة هي قضية جمع المال لتشييد قصر كبير يليق بكم والانفاق على عرسكم وزواجكم وما يسبق ويعقب كل ذلك من اقامة المآدب والحفلات والافراح . وخطتي هي كالآتي : نذيع على الرعية البلاغ التالي : ابناء الوطن الكرام . ان مولانا السلطان الذي تولى العرش من عهد قريب ليرغب اشد الرغبة ان يكون قريبا من رعيته يحس باحساسهم ويفرح بافراحهم ويحزن لاحزانهم ويشقى بشقائهم ، وانه يرغب ان يفتح عهدا جديدا ليس كغيره من العهود التي اتسمت باللامبالاة والاستخفاف برغبات الرعية ، ومن اجل ذلك يرغب السلطان الطيب الكريم ان يهجر قصر اجداده الذي يذكره بعهود محزنة ذاق الناس مرارتها وان يسكن في بيت عادي قريبا من بيوتهم فلا يفصله عنكم جند وحراب واسوار عالية وقد ارتأينا بعد المداولات الطويلة ان نهيىء لمولانا السلطان بعض المال اليسير ليبني له بيتا متواضعا . كما نود ان نبشر الرعية بنبأ مفرح ، هو ان سيدنا السلطان سوف يدخل الدنيا الرحبة ويختتم ايمانه على سنة الله ورسوله فيتزوج ويغدو رب اسرة ووالد اطفال كيما ينصرف فيما بعد بنفس رضية قانعة الى الاصلاح الذي يعتزم ادخاله على حياة كل فرد منكم . تعلمون ان مثل هذه الامور تحتاج الى شيء من مال ولا نظن ان ايا من افراد رعيتنا المعروفين بالجود يبخل على سلطانه بما يتيسر لديه من مال طفيف لبناء البيت والانفاق على الزواج ، ونرجو ان نكون عند حسن ظننا بالرعية الغيورة الصادقة والطيبة » .

هكذا اختتم المستشار مقالته ، فتوقف هنيهة استعدادا لجمع قواه على مواصلة قراءة خطته العملية قال :

« لدي مخطط سري يتناول كيفية جباية المال المطلوب بالقوة وبالمقدار الذي يكفي لبناء عشرة قصور مثل القصر الذي يحيا فيه مولانا السلطان في هذه الايام وبالمقدار الذي يكفي لعقد قران مئة سلطان . ان الذي نفعله هو كما يلي : نعين جباة عند مفترق كل طريق يقود الى خارج المدن وفي كل سوق ومتجر ومستودع ومحطة وفندق ومطعم وملجأ ومستشفى وسجن وملعب ومرقص . نفرض الضرائب على من يموت ويولد ومن يسافر ويعود ومن يتزوج ومن يبحر في زورق او يمتطي متن عربة او يستقي الماء من البئر وكل من يركب بغلا ويحلب شاة ويجني ثمرا ويذبح بعيرا وكل من يزرع ويقلع ويحصد . وكل من يتبول ويتغوط خارج جدران منزله وكل من يترمل ويتيتم وتفرض الضرائب على كل حطاب وخشاب وحداد وتناك ونحاس وحفار ووقاد وحراق وخباز وجرار وفحام ولحام وعتال وحبال وفتال ونشال وسفاح وهواس وطبال وزمار . وتفرض الضرائب على كل راكع ومستغفر ومتنسك ومتصومع ومبسمل ومحوقل . هكذا خلال اشهر ثلاثة تكون خزانتنا ملآى بالذهب » .

هتف السلطان « هذا شيء عظيم توكل على الله » فابتسم المستشار في ارتياح وزهو معجبا بجمال صوته ودقة تعابيره ودهاء عقله . فاخذ السلطان المقالة ووضعها على الرف الى جانب اختها الاولى ثم التفت الى مستشاره في الشؤون الخارجية وطلب اليه ان يتلو مقالته وكان هذا المستشار ثقيل اللسان ابح الصوت قد هدته الاعوام واتلفت اسنانه قال « ان رغبة سيدنا السلطان تنطوي على صعوبات جمة ومخاطر لا تحصى نتائجها ولكن مايطلبه السلطان لا يعجز عن تنفيذه عبيد السلطان . فقد اوعز الي سيدي ان اتدبر السبل لتوسيع رقعة ملكه العزيز حتى يتاخم البحر ومن اجل ان يتحقق هذا المطلب الكبير من غير اراقة دماء كثيرة ومن غير أن يتجه اللوم علينا ومن غير ان نبدو نحن المعتدين نتبع الخطة التالية : نبدأ معهم بتحرشات صغيرة على الحدود مثال ذلك ننهب اغنامهم ونخرب مزارعهم ونحول مجرى المياه عن اراضيهم وندخل معهم على نحو غير رسمي بمعارك صغيرة فنقتل

بعض رعاياهم ويقتلوا بعض رعايانا؛ وعندما تبلغنـــا احتجاجاتهم نصدر البيان التالي :

ابناء الوطن الكرام يؤسفنا غاية الاسف ان نلجـــا الى كشف بعض الحقائق التي حاولنا جهد الامكان الا نذيعها على احد حفاظـا على مصالحنا الوطنية من ان يصيبها الاذى ولكن بعد ان بلـــغ السيل الزبى واصبحت الامور من التعقيد اكثر مما يمكن احتماله فاننا نعلن للناس ان جيراننا السلاطين الذين نعتـــز بصداقتهم ومحبتهم وكنا دوما حريصين على تقوية اواصر الصداقـة والحب معهم وقد اكرمناهم ورعيناهم طوال عدة قرون ولم يحدث قط أن اختلفنا واياهم على أمر من الامور . ولكن نقولها متاسفين ان هؤلاء الجيران قد تصورونا ضعفاء فطمعوا في خيراتنا وقد جرى ذلك على نحو بدا ضئيلا تافها باديء الامر ، مثل نهب اغنـــام رعايانا عند الحدود وقتل حراسنا واختطاف نسائنا فنبهنـاهم الى ذلك باللطف والحسنى ولكن لم يجد ذلك نفعـــا فاضطررنا كارهين الى ان ننذرهم انذارا نهائيا ان يكفوا عن اذانا حســـما للامور ، فان خاصمونا واخذوا منا ما نملك وان يكون قليلا فان يكون الملـــوم الا انفسهم » .

عندما نعلن هذا البيان سيحدث ما يلي : يتحفز شـــعبنا للانقضاض على السلطنات المجاورة وذلك بعدة دوافع منهـــا للسلب والنهب والتمتع بالنساء والطعام ولاظهـــار صولتهم وقوتهم وجبروتهم وكل ذلك مكبوت في عضلاتهم ولا ســـبيل لاظهاره في هذه البلاد لان السجون والمشانق في انتظارهم وبعـد ذلك توفير فرص المغامرة والقتال لاولئك الذين يتمتعون بدمـــاء فائرة حارة ، اما ما يحدث في السلطنات الاخرى فرد فعل عنيف بسبب اننا شوهنا الحقائق وافترينا عليهم وألبسناهم لبـــوس اللصوص وما هم بلصوص وليس للانسان غضبة اشد من غضـبة الافتراء عليه وعند ذاك ستتأهب السلطنات للدفاع عن نفســـها وتأجيج العداوة في صدور ابنائها ضدنا . والذي نفعلـه نحن في هذه المرة هو مضاعفة التحرشات ومضاعفة اعمال السلب والنهب والقتل حتى نرغمهم على ان يقتلوا جنودنا واذا ما فعلـــوا ذلك

جئنا بالقتلى وعرضناهم على الشعب واصدرنا البيان التالي :

ابناء الوطن الكرام . يا ابناء الشعب الكرام . ان الصديق قد لبس لبوس العدو وان دماء ابناء الوطن اخـــذت تسيل كالانهار . لقد جند الجيران جنوده ليقتلنا ويستولي على بلادنا العزيزة ونكون نحن جميعا عبيدا اذلاء . اننا لن نكون جبناء ولن نؤخـذ على غرة ولن نكون مغفلين . ان ارضنا الطاهرة قد اصطبغت منذ القـــدم بدماء ابناء هذا الوطن وما على الاحفاد الا أن يرعوا حرمـــــة بلاد الاجداد ولذا فقد قررنا تأديب المعتدي وايقافه عند حده كما امرنا برد العدوان بعدوان مثله واقسى منه يكون عبرة لمن يعتبر ولسوف تدور الدوائر على المعتدين » .

اما الاجراءات السرية فهي كما يلي : تجنيد القادرين على حمل السلاح فورا ، وخزن كميات كبيرة من الاطعمة في مستودعـــات الجيش ، ومصادرة كل ما لدى الناس من اسلحة لتأمين السلامـــة في داخل المدن ، ثم تنظيم حملة دعائية تنطلق كالهـــــدير مبررة الحرب ومبرزة منافعها باعتبارها اداة وقائية ودفاعية تتطلبهـــا الظروف للمحافظة على تراث الاجداد وارض الوطن ومقدساتـــه وحرماته ومن يقعد عن خوضها فهو خائن جزاؤه الموت .

وليعلم مولاي ان هذه الاجراءات سوف تولد الاســتياء الخفي في المحافل والاندية والبيوت والمقاهي وان معالجة هــذه القضية يكون على الوجه التالي : في كل مجتمع او مجموعة من النــــاس يبرز بعض اصحاب الافواه الطلقة الراغبين في المغامرة ليجعلوا من انفسهم زعماء او شهداء او قادة . اولئك قلة وهم مثيرو الفتنـة والشغب وهم العث الذي ينخر كراسي المسؤولين ويهــــدم صرح السلطة ويفسد علينا خططنا ومشاريعنا ، وعليه يجب ان نســلط على هؤلاء قوة رادعة باطشة لا تبق منهم باقية ، نســـــلط عليهم الآذان المرهفة التي تسترق السمع من خصاص الباب والعيــون الحادة المتلصلصة التي تنفذ من خرم الابرة وترى ما وراء الستائر والجدران والاسوار . علينا ان نعلم ما الذي يدور من حديث بيــن الزوج والزوجة وبين الاخ واخيه وبين العاشــق ومعشوقته وبين العبد وسيده وبين الخادم ومخدومه . كل ما يقال يصل الينــــا

فنزن قيمته وخطره واهميته ونعالجه بالشكل الذي يحفظ لنا الحكم . فنعلم من هم المستاؤون من سياستنا فنامر بحجرهم وحبسهم ونفيهم من الارض فان ارتدعوا بعد حين اطلقنا سراحهم وان تمادوا في غيهم فليس من سبيل امامهم غير الهلاك . نخبره بين امرين لا ثالث لهما اما ان يؤيد سياستنا وينضم الى جانبنا ويقول ما نريده ان يقول واما ان يمكث في محبسه حتى يقضي الله امرا كان مفعولا . واذا ما صفينا هذه الحثالة المشؤومة ومهدنا السبيل لكل شيء تكون الحرب مأمونة ومربحة ، وما هي الا ايام حتى تكون تخوم سلطنتنا قد امتدت الى البحر وامتلكنا الماء والشجر والمرعى والماشية . وختاما دام حكم مولانا السلطان عزيز الجانب موفور النعم رافلا بالبركات والخيرات » .

وما ان انتهى المستشار من تلاوة مقالته حتى انفرجت شفتا السلطان عن ابتسامة زاهية ما فتئت ان تلاشت رويدا رويدا ثم بانت على محياه انطباعة مريبة صفراء ثم اطرق مفكرا محركا فكه يمينا وشمالا وهو بين هذا وذاك يمطمط في صوت مسموع كمن اصيب بذهول لم يعلم احد باسبابه وخطورته .

حدق المستشارون الثلاثة الى السلطان في ريبة وتوجس واخذت قلوبهم تدق بشدة وامتقعت وجوههم واخذ الخوف يدب في أوصالهم التي اخذت بالارتعاش تساءلوا مع انفسهم « ما الذي أصاب السلطان » خيل لاحدهم ان نوبة عصبية قد ألمت به وخيل للآخر انه يعاني ألما ما في جوفه .. صعق مستشار الامور الخارجية وتناثرت الاوراق من يديه واخذ يمسك بها على غير ترتيب أو هدى .

بعد دقائق من الاصطبار المروع نهض السلطان بعزيمة ومضاء وتناول مقالة مستشار الامور الخارجية وقذف بها على الرف باحتقار .

شعر جميعهم ان شيئا ما بالغ الخطورة يعتمل في نفس السلطان ، قمينا بأن يهدد سلامتهم ويعرضهم الى اخطر المهالك .

قال السلطان بجرس جاف مفرقع وكأنه القاضي يلفظ حكمه على قاطع طريق « انتم مجرمون ثلاثة تفوق جرائمهم بعشرات

المرات جرائم كافة المساجين في سجون السلطنة . ليس هناك من قاتل قتل اكثر من انسانين او ثلاثة او اربعة ، وليس من سارق سرق اكثر من الف او الفين من الدنانير ، وليس من مغتصب استولى على اكثر من قطعة ارض او بيت او مزرعة ولكنكم في عهد والدي قتلتم الالوف وسرقتم الالوف واغتصبتم الالوف ودبرتم المكائد والاحابيل لانتزاع الرغيف من فم الجائع وانتزاع الرجل من سرير زوجته وانتزاع الصبي من أحضان امه وابتزاز آخر فلس من المسكين المعدم » .

جمجم الثلاثة في فزع « لقد امرتنا ان نفعل هذا ففعلنا نحن لم نكن نريد ذلك » .

فرد عليهم السلطان « انما اردت اختباركم بالذي تعرفونه احسن المعرفة والذي مارستموه وحذقتموه وكان على ما تشتهي انفسكم . هذه حقيقتكم . وهذه مؤامرتكم والاعيبكم وهذه سياستكم . لقد كنت اريد ان ادينكم بجرم جديد وكنتم افظع مما تصورت وقد بدت لي عقولكم تعمل في الشر على اكمل وجه مستطاع ، وانني احملكم مسئولية الجوع والحرمانوالاذى والعري والهلاك وتيتيم الاطفال وترميل النساء ، وكل مصيبة حلت بالناس خلال عهدكم الممقوت » .

زفر السلطان زفرة غاضبة واشار الى المقالات فوق الرف قائلا « هذه جرائمكم وبها ادينكم » .

فقد المستشارون السيطرة على اعصابهم فراحوا يتململون ويتلفتون كجرذان اطبقت عليهم المصيدة متمتمين بأعذار واهية تخرج من افواههم وكأنها الشهقات ، الا ان احدهم لم يجرأ ويقول « ان السلطان الوالد الذي انزل في قبره قبل ايام كان يريد ذلك » .

وواصل السلطان الشاب حديثه في عزم وصلابة : « بناء على ما ارتكبتموه من جرائم فقد امرت ان يطلق من السجن كافة المساجين وان تنشر بين الناس مخططاتكم الجهنمية وليعلم كل انسان من انتم وكيف تفكرون وكيف تتآمرون وكيف تقتلون الابرياء وتنهبون اموالهم ثم يصدر الشعب حكمه عليكم حسبما

يراه عادلا ومجزيا » .

ارتمى المستشارون عند قدمي السلطان الغاضب فقد اثارت كلمة الشعب الفزع العظيم في اوصالهم وتحققوا ان ابشع صورة للموت سيرونها بام أعينهم ، فتوسلوا واستعطفوا بأن تصادر أملاكهم وان ينفوا من الارض ويفعل بهم السلطان كل ما يشاء الا ان يسلم ارواحهم بيد الشعب فهذا هو البلاء الكبير . ولكن السلطان أصر على رايه وامر بطردهم فخرجوا من حضرته باكين مولولين يتعثرون بأذيال ارديتهم وكأنهم يساقون اللحظة الى منصة الاعدام .

قال السلطان مهددا « ان الشعب هو الذي يحكم عليكم بالذي تستحقونه ، وعسى ان يرأف بكم ولكنه لم يفعل » .

* * *

بعد انقضاء عدة ساعات طقطقت اقفال السجون وشرعت الابواب الغليظة وتفككت سلاسل الحديد عن كل قدم ومعصم فتدفقت آلاف الانفس البشرية المحبوسة في الظلمات الى عرض الشوارع لا تدري ما الذي حدث ولا تدري ما الذي ينبغي ن تفعله بعد ان منحت الحرية ، بل ان بعضهم خشي ان تكون ثمة خديعة فآثر ان يمكث في محبسه ولا يكون من العصاة المتمردين فينزل به اشد العقاب ، فتقدم اليهم السجانون ونخسوهم بالعصى وامروهم ان ينطلقوا الى بيوتهم . ثم برز من قصر السلطان ثلة من الحرس يحملون كومة من الاوراق قالوا عنها انها مخططات المستشارين ، جاؤا بها الى اكبر ساحة في المدينة ولصقوها على الجدران وامروا الناس ان يقرأوا ما جاء فيها ثم يصدرون حكمهم وينفذون الحكم بانفسهم ولا عقاب على احد .

تجمهر الناس بالآلاف يتدافعون ويتزاحمون حتى انتهى بعضهم الى الاوراق فقراوها بصوت عال ثم تناقلوا محتواها حتى علمت كل نفس ما جاء فيها فتشاوروا بالامر غاضبين ثائرين فصاح الشجعان فيهم « الى قصور المجرمين » وترددت الصيحة مرات

ومرات حاملة في كل مرة شحنة جديدة من الغيظ فانتشـــر على الاثر خط عريض طويل من الحفاة والجياع والمغــامرين متجهين الى القصور العظيمة الزاهية التي يقيم فيها المستشارون الثــلاثة . كانت الدمدمات والسباب وعبارات التهديد تتطــاير من كل فم واشهر الكثير منهم السكاكين والخناجر والفؤوس والحجــارة والعصي ، وعندما بلغوا القصور دخلوهـــا بعنف محطمين الابواب والنوافذ محدثين ضجة مرعبة هائلة وتعاون العشرات على انتزاع الاثاث الفخم من مكانه وتهشيمه افظع تهشيم بدافع الحقد والكره المتراكم خلال عدة اجيال ، ولما سوى كل شيء بالارض وفقـــد قيمته ، أضرمت النيران فتصاعد اللهب الى عنان الســماء ، ولكن لم يعثر احد على نفس حيـــــة فيهنا بقتلها وتمزيقهـــا . كانت القصور خالية تماما من ساكنيها . لقـــد هرب المستشارون الى حيث لا يدري احد .

وعندما امسى المساء بدت النيران اكثر روعة فصعد النـاس فوق السطوح يكحلون الطرف برؤية اللهب الاحمر الشـــره وهو يلتهم انفس الارائك والمفروشات والتحف وهم فرحون بالمشهد كما لو كانت هذه الاشياء هي المسؤولة عما حل بهم من هلاك ودمار . ولما خمدت النيران وهدأت الدماء وسكنت العاصفة اخذ النـاس يتساءلون « ما الذي حدث » و« علام حدث » و« ما وراء ماحدث » لقد ساد الهرج والمرج وتعطلت الاعمال واقفلت الدكاكين واقيمت حلقات رقص وابتهاج في الميادين العامة وتدفق الفلاحـــون الى المدينة وهامت الابقار والمواشي على وجوهها واخذ كل متفلســـف يخوض في سياسة الحكم ، ويتحدث بما لا يمكن الحديث عنه في سالف الايام . قال قائل منهم : ان الحكم سيتجه الى الشـــورى وقال آخرون : انه حكم السلطان العـادل وقال فريق ثالث : لا غنى ولا فقير بعد اليوم وقال فريق رابع : ان السلطان في طريقه الى الجنون وقال فريق خامس : انـــه من عمل الشيطان وتنبــــأ المتشائمون بنهاية العالم . وتشــــكلت في المدارس والانديــة والجوامع حلقات تتدارس الموضوع وتتناقش فيه في حمية ولذة ناسية اية قضية اخرى حتى ان قيل لاحدهم ان زوجتك اصابهـا

الطاعون لاجاب لتذهب الى الجحيم . لقد خمدت الهمم وتشاغل الناس عن ارزاقهم واعمالهم ومضى كل انسان يجادل ويناقش حتى يتعبه الجدال والنقاش ولا ينته الى شيء مفهوم .

* * *

دام هذا الحال اياما عدة حتى خوت الالسنة من القول وجاعت البطون وذهب كل ما للحديث من جدة وطرافة ثم انتهت الامور الى المشاكسة والمنافرة حتى كادت الفتنة ان تطلع رأسها . وقد وقعت فعلا احداث مؤسفة بعد ان فقد الناس صبرهم وإستنفذوا كل ما يدخرون من حكمة وحماقة وتجمل وذلاقة ، فاحتكم الجهلاء الى الخناجر وسالت بعض الدماء وتجاوز الجار على جاره وأهينت الكثير من الكرامات واخذ هذا المجرى المضطرب ياخذ بالإتساع والعنف فتمنى الكثيرون ان يختتم السلطان مسرحيته فيقول ماينبغي قوله قبل ان تقع حرب اهلية لا تبق ولا تذر كما يقولون .

وبعد اصطبار كان اشق على النفس من الموت ظهر السلطان على شرفة قصره وقال محدثا الشعب :

« لقد وجدت الا مناص من ان احدثكم حديث الأخ لإخوته . وبقدر ما انتم في شوق الى لقائي فأنا في شوق اكبر الى لقائكم وقد احتجبت عنكم وقتا طويلا حتى حسب بعضكم انني اريد الهاءكم وصرفكم عن اعمالكم وافتعال القتال بينكم . إلا انني ما اردت هذا ولم افكر فيه انما اردت أن تفكروا وتتأملوا وينـاقش بعضكم بعضا بحرية وانطلاق حتى يقول احدكم كل ما في نفسه فيسمعه الآخرون وبهذا الاسلوب سوف نصل الى أحسن السياسات واحسن الافكار . ولابد أن أشياء مثل هذه قد تحققت من غير ريب ، وعليه اطلب اليكم ان تبعثوا لي بأحكم حكمائكم لاشاوره في الامر على ان يكون صريحا وعالما ومؤثرا قول الحق على الباطل وأن يكون جريئا مؤدبا . فأنا أريد أن أتعلم وأهتدي ان كنت قد ضللت السبيل فان جاءني منافق جاهل او عالم رعديد او مشعوذ اهوج أمرت بقتله ولن تشفع له شافعة .. وانني لمنتظر

مثل هذا الرجـــل ان يطرق بابي ويقول انني « عالم وجـــريء وصريح » .

بعد ان أعلن السلطان بيانه هذا احتدم النشاط مرة اخرى في اوساط الناس ، ترى من تكون له الشجاعة والقــدرة والعلم على اقتحام قصر السلطان ليكون معلمه وناصحه وهاديه الى ســواء السبيل وان لم يكن كذلك امر بقتله ، وما اسهل الدم ان يسـفك عند عتبات قصره .

استمرت المداولات عدة ايام بلياليها واصطف الناس جماعــات جماعات على طول الطرق المؤدية الى قصر السلطان ليروا بطـل الساعة الذي لا يهاب ولا يخشى وهو يأخذ سمته متجها لمقابلــة السلطان العظيم وليكون معلمه وناصحه . كان احكم الحكمــاء المعروفين تأخذه الرأفة على حاله من ان يخوض في هــذا المخاض العسير وكان شيوخ العلم واساطين المعرفــة وارباب المجالس ورواة الاخبار وكل متفقه ومتعلم يهز كتفيه رافضـــا ان يكون الشاة التي تضع قدميها عند دكان الجزار . لقد غلب الجبن العلم وانهزمت الحكمة امام الجرأة ولاذت العمائم الكبيرة المتشامخــة في الاقبية والسراديب تخشى صولة السلطان . ترى من سيكون الحكيم المنتظر ! تنبأ بعضهم انه سينطلق من مستشفى المجانين .

وذات مساء برز رجل عادي المظهر يعرفه قليل من النـــاس يعمل مكتبيا في احدى مكتبات المدينة ويعلم الاولاد القـــراءة والكتابة . رجل محترم قليل الشأن معتكف في معظم اوقاته بين الكراريس والكتب يحيا حياة انفرادية في بيت صغير يقـــع في أطراف المدينة . تقدم هذا الرجل رزين الملامح علماني الهيئـــة رشيق الخطا متخذا سبيله الى قصر السلطان حملقت فيه الاعين مدهوشة وهمس بعضهم في اذن بعض « لقــد جن معلم الصبيان وان رأسه ستقطع بعد دقائق » .

مضى الرجل رابط الجاش ثابت الخطو مرفوع الرأس مطمـأن النفس كشهيد من شهداء الفكر يستمرأ الموت على قــول الحق . بلغ بوابة القصر فافسح له الجنـــود وقادوه في رفق ولطف الى حيث يكون السلطان .

* * *

كان السلطان يروح ويجيء عبر غرفة واسعة فخمة تمتد عدة امتار طولا وعرضا حافلة بانواع النفائس مما لم يتيسر مشاهدتها في اعرق مخزن للعاديات . هناك السيوف والخناجر وجلود الوعول والثعالب ورؤوس الاسود والنمور واقداح الشاي البلورية والفضية والمسابح والمجامر والقلائد والكاسات والفؤوس والاوشحة والنمارق وانماط من الاواني والاوعية والصحون مما لا يقع تحت حصر . كان السلطان يبدو بالغ الانزعاج قد عقد يديه خلف ظهره واحنى ظهره الى الارض مطرقا اطراقة المفكر المهموم . وكان قد انتهى الى الظن ان السلطنة خلت من الحكماء الصادقين الاجرياء كما تخلو القلوب من الرحمة ايام الجدب والقحط . وهذا ما اكربه واحزنه . واذ ما شعر ان انسانا دخل عليه تلفت بغتة والقى نظرة طويلة فاحصة على الزائر تصدى لها هذا بثبات وعزم وبسالة .

قال السلطان يحدث نفسه « انه جريء » ساله :

ـ اي شيء تريد ايها الرجل ؟

اجاب الحكيم في نبرة الواثق الذي يصحح خطا :

ـ سمعت ان مولانا السلطان ينتظر حكيما يسدي اليه النصح والرأي وقد احجم من كان يجب الا يحجم حتى حسبنا ان الحكمة اندر من العدل وان الشجاعة ما زالت مزية من مزايا الحيوان الكاسر » .

اجاب السلطان في هدوء وقناعة وقد طابت نفسه لمقدم الزائر « ان الامر لمحزن » .

فاسترسل الحكيم يقول « لقد أتيت على اية حال . فليس في وسع البلد ان يلبث طويلا في الفوضى ، واخشى ان ثمة احداثا مؤسفة في طريقها الى الوقوع . وليس الدم رخيصا كما ارى » .

امره السلطان ان يجلس ، ففعل دون ان يفعل ما اعتاد ان يفعله الزائرون من ضروب الانحناء والتردد والتظاهر بالتواضع الكاذب .

سأله السلطان بغتة « هل تخشى الموت ؟ »

اجاب السلطان « انني لم افكر في الموت حتى ان امرت ان

اموت فكثير من الاموات هم احياء كمـــا ان كثيرا من الاحيـــاء هم اموات . فالمسألة تتطلب زمنا حتى تستقر في اذهان الناس »

عقب السلطان « هل ترغب ان تكون شهيدا ؟ »

أجاب الحكيم « اذا رغبت ان تكون طاغية » .

فسأل السلطان « ما معنى ان اكون طاغية ؟ »

اجاب الحكيم « يقول العارفون : اذا انتهى القـــانون بدأ الطغيان وحيث لا قانون فثمة طغيان » .

قال السلطان « ولكنني انا القانون » .

فرد عليه الحكيم « انت ستبقى ســـلطانا وسيبقى القانون قانونا . ان النار لا تستحيل الى ماء . وان المرء لا يكون قاضيا في دعواه . وان الذين يطيعون القانون يطيعون انفســـهم والسلطان ليس هو انفسهم » .

صمت السلطان بضع لحظات يفكر في طريقة يصل بهـــا الى سبر غور هذا المقتحم لقصره . سأله « هـــل تفهم كثيرا فـــي السياسة ؟ »

أجاب الحكيم : افهمها خلاف ما يفهمها مستشاروك المعزولون، انني قد قرأت ما كتبوه فانتهيت الى الاعتقاد انهم ابالســـة ارضيون ، وانهم أصل خراب هذا البلد . انني لا ادعي العلـــم ولا أقول انني أفضل من سواي ، ولكنني اجيـــد النطق ببعض الحقائق التي قد تروق لك ولا تروق وليس لاحـــد من الناس سيادة عليك .

قال السلطان مصححا ما ذهب اليـه الحكيم « لو كنت ارغب ان احكم وحدي لما اعلنت ما اعلنت وجئت انت في اعقـــاب الاعلان » .

ـ « ليست هذه قرينة كافية . » أجاب الحكيم في عـــزم « حتى السفاحون والمغامرون يحتاجون في كثير من الاحيـــان الى من يعينهم على ذبح الابرياء . ان الاسكندر لم يتعظ بأرسـطو وان نيرون خان مبادىء استاذه سنيكا وكان مع تيمورلنك عشـــرات المستشارين الا انهم لم يحولوا بينه وبين قتل ٧٠ الف انســـان في أصفهان لانهم لم يدفعوا له الضرائب وقد احرق مدينة دمشـــق

وقتل ١٠٠ الف انسان في بغداد واحتز رؤوسهم وجعل منها هرما وسفح دماءهم في دجلة حتى ان المياه اصطبغت بالدم لمدة عشرة ايام .

تمتم السلطان « هذا صحيح وليسرني ان اسمعه ، ولكن ما الذي تراه اكثر صوابا وما الذي يتعين علي فعله ؟

تنهد الحكيم واطرق برأسه الى الارض وجد ان من العسير ان يقول للملك « اطرح وشاحك الارجواني وخل بينك وبين الصونجان » . ولكنه قد جاء لامر ولابد من انجاز هذا الامر قال « يا سيدي ان الذي يحتاجه السلطان ليست الحكمة ولا الحكماء انما يحتاج الى القوة التي تفرض عليه اتباع هذه الحكمة او تلك » .

اجاب السلطان في بداهة « الحكمة كالقمر لا يختلف فيهما اثنان » .

رد عليه الحكيم في ثقة « يختلفان من كل بد عندما يكون احدهما سيدا والآخر مسودا . وعندما يكون احدهما قادرا على قطع الرؤوس وتحطيم الجماجم وزج الناس في الزنزانات ونصب المشانق والتمويت جوعا وعندما يكون الآخر اعزل ضعيفا لا يملك القوة والحول » .

قال السلطان مدافعا عن نفسه « انا لست مستبدا » .

رد عليه الحكيم « انت لست مستبدا عندما لا تجد في الحكمة اذى وضررا او تقييدا لحكمك . انت ترحب بالحكمة وتقبل رؤوس الحكماء عندما يبتدعون حكما تقوي عرشك وتعزز نفوذك وترضي غرورك ، والى هنا ينتهي حلمك وخلاف ذلك ستكون شيئا آخر يفهم جيدا معنى الدم » .

كانت الكلمات تتدفق في هدوء من شفتي الحكيم وكأنها ماء ينحدر من سفح جبل لا تعيقه حجارة ولا اخدود عن بلوغ مصبه كان منطيقا جريئا ولكن في دماثة وطيبة موحيا السلطان في كل لحظة ان من الميسور الاتفاق معه على امور حسنة .

سأله محاولا ان يستريح قليلا من عناء الاصغاء الى جرس صوته الرتيب الخطابي :

ـ « اين درست ؟ »

شرع الحكيم يسرد تفاصيل محصوله العلمي بنبرة هادئة « لقد قرات العديد من الكتب التي تبحث في فلسفة الحكم واصوله وانواعه ومؤلفو هذه الكتب ليسوا من هذه البلاد ولا ينطقون بلساننا . انهم نابغون علماء ما افتأ اقرأ في كتبهم واتأمل في مضامينها العظيمة واهز رأسي واقول كيف يمكن ان تكون هناك مظالم وفي رفوف المكتبات آلاف الكتب التي تفلسف الحكم وتنظم حياة الناس وتزجر الطغاة وتلعنهم وتدعو الى العدالة والمساواة وتكريم الانسان الفرد . يقول رجل اسمه روسو ان الناس جميعا اقدموا على ابرام عقد فيما بينهم . هذا العقد يلزمهم ان يعيشوا سوية في تعاون ومحبة وان يسنوا لانفسهم قوانين هي بمثابة الارادة العامة فلا يقع جور على فرد الا اذا جار الفرد على نفسه .

سأل السلطان مقاطعا الحكيم : ومن يحكم هؤلاء الناس ؟

اجاب الحكيم : يحكمهم احدهم ، انسان اجير موكولة اليه هذه الوظيفة قد يعزل من منصبه كما اعزل انا بستانيا عجز عن تنمية شجرات التفاح في حديقتي .

فقاطعه السلطان « عند ذاك لم تبق للحكم هيبة » .

اجاب الحكيم « لا شيء اسمه هيبة ، انما هناك شيء اسمه الرأي العام ، هو رأي الناس مجتمعين على جدارة السلطان » .

هتف السلطان بنبرة حادة « اين هم الناس انني لارغب ان اسمعهم ينطقون ؟ »

اكد الحكيم في قناعة « ينطقون من غير بد » واسترسل يقول بنبرة اكثر هدوءا واحفل بالترصن « هناك سداد اشبه بسداد القنينة يكتم انفاس الناس . ارفع هذا السداد ستسمع قرقرات وثورات واحيانا انفجارات غضب من اعماق القنينة . ان داخل المرجل مياه تغلي وتصطخب ولكن فوق كل مرجل غطاء سميك » .

قال السلطان في استخفاف « انني لو تركت كل انسان يقول ما يشاء لما كان ثمة سلطان . فالطامعون في اخذ مكاني في وفرة الحصى ، وحتى ان تمكن احدهم من زحزحتي واخذ مكاني فانه لن يفعل خيرا مما فعلت ولن يكون اعدل مني ولا اكثر مني رحمة بل قد يكون همجيا كاسرا »

قال الحكيم « معنى هذا انك مهتم بادامة حكمك اكثر مما انت مهتم بمصائر الناس ؟ »
اجاب السلطان « انا مهتم بكلا الامرين » .
وسأله الحكيم مضيقا عليه الخناق « وان تعارض هذان الامران الى اي جانب تميل ؟ »
شعر السلطان انه امام مفترق طريقين فاما ان يفرغ همته في حماية حكمه واما ان ينصرف الى حماية مصالح الناس ومن النادر جدا ان تستوي مصلحة السلطان مع مصلحة الناس الا في ذوي العزائم من القادة والانبياء والمشرعين والفاتحين فتحا جديدا في مسيرة التاريخ .
اكد الحكيم في قوة « ثمة انانية مع كل اسف ومن هذه الانانية تنبثق شرور الحكم او كما تسمى شهوة الحكم او الرغبة في ان تجلس على اعلى التلال ، والناس من حولك اقزام صغار . ان دولة جديدة زاهرة ستنشأ فوق هذه الارض الكئيبة اليائسة التي شهدت صنوفا من المظالم ، ستنشأ رغم حقد الحاقدين وكره الكارهين . ان لم يكن غدا فبعد سنين . ان يوما مثل هذا لايلبث طويلا حتى يحل بكل تاكيد .
سأل السلطان في اهتمام « على اية صورة يكون مثل ذلك اليوم الذي تتصوره حالا من غير بد » .
هز الحكيم رأسه وسمر نظرا ثابتا الى السقف كمن يستشف رؤيا قال وكأنه يحلم « عالم جديد يكون فيه الانسان قد انهى كفاحه الشاق المرهق الذي استنفد من عمره ملايين السنين . كل صراع بين الناس واخيه الانسان قد اسدلت استاره وانطوت صفحاته . بين انسان في القطب والآخر على خط الاستواء وثالث في بلدنا هذا ، سيغدو الانسان انسانا مرة اخرى كما ظهر على هذه الارض لاول مرة ولكنه سيحيا حياة اخوية مسالمة ، ولسوف تذوب العداوات وتزول الاطماع ، وان هذا الانسان الذي اتصوره سوف يقهقه ساخرا من اجداده اذ ارتضوا ان يعيشوا مغمضي العيون قساة القلوب محدودي الفكر ينهش بعضهم لحم البعض والذي اريد ان اقوله ان الناس هم اصحاب الشأن اولا وآخرا

وما انا وسواي الا حاملي مشاعل ومرشدين وناصحين ومتأثرين خطى غيرنا الذي احسنوا تصريف امورهم وبلغوا ما بلغوا من تقدم وازدهار . ان علينا ان نحمي انفسنا من سحر الكلمات انها داء عضال وآفة مهلكة . ان يقول احدنا قولا الا ما يمكن ترجمته الى واقع ، وان نبدأ من اوطأ الطبقات ومن ارذل المجتمعات ومن احط الاوساط ، فليس من المجدي ان نغطي القروح بالديباج ونكشط القذارة من سطح المستنقع ونترك الديدان تتسرب الى كل مكان . انني لا اقول شيئا جديدا واحسب نفسي قزما بالقياس الى عمالقة الفكر . ان الذي يضع لبنة واحدة في بناء مستقبل الانسانية السعيد هو الرائد المعظم فطوبى له » .

خفض الحكيم عينيه وحدق مليا في وجه السلطان الذي بدا ساهما قلقا ، تنهد غير مرة وسمعت لهاثه الخافتة كاشفة عما كان يعتمل في ذات نفسه من حرج وضيق . شعر ان يدا حديدية قد اعتصرت فؤاده وان طاقته على التفكير قد شلت وكبتت .

تمتم السلطان في ذهول : عالم جديد . عالم جديد اشد ما انا اتوق ان اشهد هذا العالم الجديد .

عقب الحكيم موضحا : ان انسانا مثل هذا قد وجد في مكان ما على هذا الكوكب ولكنه يحيا في حذر خشية ان ينقض عليه الانسان الآخر ويدمره ذلك الانسان المستبعد لاطماعه واحقاده . فليس كل ما ينظر اليه بعيدا يمكن الوصول اليه . ان العين اجرأ من القدم . والذي اراه ان نبدأ من اوطأ الدرجات على ان نتبين السلالم المتينة والصحيحة الذي تحملنا الى ما نريد والا نكون قد تهنا في البيداء واضعنا رشدنا وتخبطنا في المآزق .

* * *

لم يدهش السلطان اذ وجد نفسه متراسا بغيضا يعيق العربة على ان تتدحرج برشاقة وخفة . انه جزء من بلاء عظيم . لقد شعر ببعض هذا عندما امتحن المستشارين وخبر مكرهم واحابيلهم ، فكشفهم الناس علانية وكادوا يفتكون بهم شر فتك

اولا ان يهربوا تحت جنح الظلام تاركين قصورهم تلتهمها النيران .

قال الحكيم في يوم آخر : ساتحدث عن اشياء كثيرة قد ننتفع بها كلانا . قبل نحو اربعة قرون وضع رجل كتابا . اسم الرجل مكيافيللي واسم الكتاب الامير . يعلم مكيافيللي الامير او السلطان او الزعيم كيف يحكم وكيف يديم حكمه وكيف ينال رضا الناس وهو يغوص الى ركبتيه في دماء الناس .

يعلمه كيف يظلم ويبدو عادلا وكيف يخدع ويبدو صادقا وكيف ينكل بالخصوم ويبدو شهما منقذا وكيف يسمو الى المجد بين هالة من الاكاذيب والتضليل . يعلم مكيافيللي اميره كيف يحكم باطمئنان وراحة . يعلمه البطش بالناس بقدر ما يكون البطش ذو فائدة لترسيخ حكمه . يعلمه متى يبطش وكيف يبطش والى اى مدى يبطش وبمن يبطش وعلام يبطش وكيف يبرر بطشه ويسوغه . لقد بطش جنكيز خان بالالوف وكذلك فعل اتالا وتيمورلنك . لقد بطشوا بدافع اظهار جبروتهم وبث الفزع في القلوب وكان بامكانهم ان يحققوا انتصاراتهم بعشر الدماء التي سفكوها ولكنهم لم يفعلوا . ان مكيافيللي يعلم الامير كيف يتدبر امره ليكون محبوبا وقويا يمتلك مزايا الاسد والثعلب . يعمل على ان يكون ثعلبا واسدا في آن واحد ذلك بانه اذا لم يكن الامير الا اسدا لما استطاع ان يتبين الشباك الذي تنصب اليه وانه اذا لم يكن ثعلبا لعجز عن مغالبة الذئاب ، لذلك يقتضي الحال ان يكون الامير ثعلبا واسدا معا ، ففيما يتعلق بالوعود والتعهدات التي يعطيها الامير ويقطعها على نفسه ينبغي عليه ان يكون ثعلبا فلا يراعي الضمير اذا كان من شأن مراعاة الضمير الاضرار به .

يضيف مكيافيللي — تبريرا لنصائحه السالفة — انه بالنسبة للامير ليست العبرة بالوسائل ، فالناس لا تحكم على وسائله وانما العبرة بالنتائج ، فان افلح الامير في تحقيق الغاية مهما كانت الوسيلة واحتفظ بدولته ، فان الناس سرعان ما يؤيدون هذه الوسائل ويرونها شريفة ولو كانت غير مشروعة واستندت كلها الى الرذائل . لقد كان مستشاروك مكيافيليون قلبا وقالبا رغم انهم لم يسمعوا قط من هو مكيافيللي وما هو كتابه الامير ، وكان

والدك ميكافيليا! كذلك وجميع السلاطين من قبله .

قاطعه السلطان في نفاد صبر « ما وراء كل هذا الحديث ايها الحكيم ؟ »

اجاب الحكيم وكأنه يخلص الى اثبات نظرية « يكون الناس اعز من الحكم » .

فسأله السلطان « وكيف يكون ذلك ؟ »

فاجاب الحكيم « ان يكون حكم الناس بيد الناس او كما يقول روسو الذي حدثتك عنه « ان يعهد بمهمة الحكم الى الشعب او الى الجزء الاكبر منه ، بحيث يكون هناك عدد من المواطنين الحكام اكثر من عدد المواطنين الافراد » ثم عقب الحكيم موضحا جوهر تفكيره « ان احسنت فذلك خير وان اغدقت المال على المعوزين فذلك خير كذلك وان انشأت الملاجىء والمياتم والمدارس واقمت العدل واستأجرت القضاة واجرت المظلوم فكل ذلك خير ايضا ، وحتى ان اجريت الماء لبنا والبست العاري حريرا وحولت الفحم ذهبا فكل ذلك خير ايضا . ولكن من يضمن بقاء كل هذا الخير بعد ان ترحل عن هذه الدنيا . سيأتي سلطان آخر يرى خلاف ما ترى وينتهج سبيلا خلاف سبيلك وينصت الى نبضات قلب متحجر بدل نبضات قلبك العطوف وعند ذاك سيدمر ويهدم ويفتك بعباد الله

تمتم السلطان باقتناع « هذا جائز ومتوقع » .

فعقب الحكيم « لقد كان الامبراطور الروماني ماركوس اورليوس حكيما ومشبعا بالحكمة ، وكان قد تلقى علومه على ايدي الحكماء وان اقلهم شأنا اخر له ساجدا فما انا الا ذرة هباء في فضائه الكبير . لقد سطر حكمته في كتاب خالد . وكان قديسا ومحاربا رحيما وباسلا . لقد فتكت الاوبئة بشعبه ومات الالوف جوعا ، فخرج اليهم مواسيا حتى انه باع مجوهراته واشترى بثمنها طعاما لشعبه . ولما حضرته الوفاة قال « لا تبكوا من اجلي بل فكروا في مصير المرضى والجياع » . كان طيب اللقب ميالا الى الخير ولكن خلفه من بعده ابنه كومودوس . كان شريرا متلافا ساعيا في الاذى فدمر مجد ابيه كله .

وكان نظام الملك من ادهى رجال عصره . كان مستشارا

للسلطان ملك شاه . عمل زهاء ثلاثين سنة في تشييد معاهد العلم ونشر الاصلاح وقد وضع كتابا عنوانه « نصيحة الى الحاكمين » اوضح فيه رأيه السديد في الحكم وكان ان قتـــــل من جراء صراحتـــــه .

فتلهف السلطان لسماع محتوى ذلك الكتاب قال الحكيم يقول نظام الملك في كتابه الآنف الذكر « ليس في ميســـور السلطان ان يحكم من غير مستشارين مخلصين وان على اولئـــك المستشارين ان لا تغرهم مناصبهم ولا يتعسفوا على النـاس لانهم يعيشون في كنف السلطان ولا يمكن أن ينالهم العقاب . يقول ان على السلطان ان لا يودع وظيفتين لشخص واحـــد ولا ان يكلف شخصين لاداء وظيفة واحدة . ففي الحالة الاولى يسـاء تصريف احدى الوظيفتين على حساب الاخرى وفي الحالة الثانية يتواكـل الشخصان احدهما على الآخر فتبقى الوظيفة من غير تدبير . وفي هذه الايام عدد كبير من الرجال غير الاكفاء يشغلون عشـــــرة مناصب ويحلمون بمنصب جديد بينما رجال مجربون وامنـــاء وعلماء يقبعون في بيوتهم في عزلة ونسيان . وان على الســلطان ان يتعرف على كل صغيرة وكبيرة في سلطنته . فان اهمل رعيته، كان احد اثنين اما ان يعلم بالفاسد والظالم ولا يريد قطع دابرهــا فهو طاغية واما انه لا يعلم بها فهو جاهل ومهمل . هذه خلاصـــة كتابه نصيحة الى الحاكمين . الاساس هو اسلوب الحفـاظ على ديمومة الخير ولن يكون شخص السلطان غير حـــادث عارض . وحتى ان كان مثل هذا السلطان معتوها او نزقا او ميـــالا للاذى فكل ذلك يكون من غير جدوى طالما ان الاساس الذي يرتكز عليــه الحكم متين وصلب وعميق الجذور ونافذ في ضمير الناس وعالق بارواحهم وقد اضحى جزءا من يقظتهم ومنامهم ومأكلهم ومشـربهم بحيث يغدو الخروج عليه اشبه باتيان المنكر والسيء من الفعال . هذا مفتاح سياستي وجوهر عقيدتي ومرتكز ايماني . ومن هـذا المفهوم نبني دولتنا العصرية الزاهرة المزدهرة وخـلاف ذلك يكون كل شيء مجرد وهم وسحابة صيف ونزوة عارضة واحسان كاذب واذلال لانسانية الانسان . فان كان هم السلطان ان يصلح الفاسد.

ويقوم المعوج وينصف الهالك ويجير المظلوم فينبغي ان لا ينظر الى المسألة من عل او من برج النسر ولا من خلال هالات النور التي تحف بكرسيه السلطاني الرفيع المقام . ولئن استكثر على نفسه ان ينهض بهذه المهام الثقال وآثر ان يشرك في شؤونه احدا فينبغي كذلك ان يحسن الاختيار وان تكون له بطانة خيرة صالحة وان يجري الحكم على اهلية هذه البطانة من قبل الناس انفسهم ».

هكذا اختتم الحكيم رسالته الطويلة وقد شعر باقتناع انه قد قال معظم ما يجب قوله .

فأطرق السلطان مفكرا ثم اخذ يذرع المكان جيئة وذهوبا تمتم اخيرا وكأنه يخاطب نفسه : ان الثابت المستقر خير من العارض المتغير وان ارادة الالف امتن واقوم من ارادة فرد واحد . وان البناء المتين العظيم الذي يصمد للعواصف هو القائم على اعرض اساس .

فنهض الحكيم واقفا وعقب على قول السلطان بحزم « ليس بالامكان التفرد بالسلطة وتحقيق العدالة في آن واحد » .

وفي الايام التالية قص الحكيم اقاصيص شتى تتناول فن السياسة وتدوير الملك ضاربا لكل شيء مثلا .ذكر يوما حكاية الحكيم بيدبا والملك دبشليم .

قال بيدبا للملك دبشليم : ايها الملك انك في منازل آبائك واجدادك من الجبابرة الذين اسسوا الملك وشيدوه دونك ، بنوا القلاع والحصون ، ومهدوا البلاد ، وقادوا الجيوش ، واستجاشوا العدة ، وطالت لهم المدة ، واستكثروا من السلاح والكراع ، وعاشوا الدهور في الغبطة والسرور ، فلم يمنعهم ذلك من اكتساب جميل الذكر ، ولا قطعهم عن اغتنام الشكر ، ولا استعمال الاحسان الى من خولوه والارفاق بمن ولوه ، وحسن السيرة فيما تقلدوه ، مع عظم ما كانوا فيه من عزة الملك وسكرة الاقتدار ، وانك ايها الملك السعيد جده ، الطالع كوكب سعده ، قد ورثت ارضهم وديارهم واموالهم ومنازلهم التي كانت عدتهم ، فاقمت فيما خولت من الملك وورثت من الاموال والجنود ، فلم تقم في ذلك بحق ما يجب عليك ، بل طغيت وبغيت وعتوت وعلوت على الرعية واسأت السيرة ، وعظمت

منك البلية .

قال بيدبا لتلامذته : كرهت ان يموت دبشليم او امـــوت انا وما يبقى على الارض الا من يقول : انه كان بيدبا الحكيم في زمـــان دبشليم الطاغي فلم يرده عما كان عليه . فان قال قائل انه لم يمكنه كلامه خوفا على نفسه قالوا : كان الهرب منه ومن جوره اولى بـه ؛ والانزعاج عن الوطن شديد . فرايت ان اجود بحياتي فاكون قـــد اتيت فيما بيني وبين الحكماء بعدي عذرا .

وفي كتاب يوتوبيا يتحدث توماس مور على لسان بحار كهل من اهل جزيرة موهومة اسمها ــ يوتوبيا ــ يقول ان الحكم في هـــذه الجزيره اتحادي فيدرالي ، يحكمها افراد قليلون يدعون بلغة اهـل يوتوبيا (سيفوغرانت) ينتخبهم الشعب بعد موافقـة الرئيس الذي ينتخبه السيفوغرانت من اربعة مرشحين يرشحهم الشـــــعب بنفسه ، ويشترط ان يكون هذا السيفوغرانت من ذوي الحكمـــة والذكاء وان يكون قد اكتملت رجولتـــه ومال نحو الشيخوخة . وهكذا تجد أن نظام الانتخاب في يوتوبيا يجري على درجـــة واحدة وان كان بصورة غير معترف بها في هـــذه الايام ، لان النظـــام الديمقراطي الصحيح الذي اثبت انه انجح النظم واسهلها . وقـــد اثبتت الديمقراطية يوم كانت ديمقراطية حقة ؛ انها المثـــل الاعلى الذي يهدف اليه كل شعب حر ، اذ تتمثل في نظمهـا الحريات التي طالما رغب الانسان فيها وحققها ، لان الانانية غير موجودة في يوتوبيـا وهي مصدر النزعات الطائشة التي حرمت الانســـان من حرياته ؛ ولكن اهل يوتوبيا لم يحرموا منها ؛ فهم احرار مقيـدون بحريتهم ؛ والشعب في يوتوبيا حاكم نفسه وهؤلاء الحكـــام اي السيفوغرانت هم من الشعب وتحت ارادة الشعب ؛ وليس لهم حق اقـرار قانون او تشريع عام ما لم يوافق عليه الشعب باجمعه .

ان توماس مور هذا قد اعدم حيث فصل راســـه المفكر عن جسده العزيز .

وثمة كثيرون تعجز الذاكرة عن استحضار اسمائهم . لقـــد كان صولون مشرعا يونانيا عظيما ، وضع دستور لاثينـــا واعطى المجلس صلاحيات كبرى لتقرير ارادة الشعب وما ان اقتضـــته الظروف الى الغياب عشرة اعوام عن مسرح السياسة حتى عـادت

الفوضى وعاد الخراب من جديد .

اما مدحت باشا ابو الدستور العثماني كان يرى ان الشعب يجب ان يكون صاحب السلطة الاولى في البلاد ، وان تكون ارادته فوق ارادة الحكام والسلاطين فكافح كفاحا دائبا في سبيل الدستور مؤمنا بان اعلانه اول خطوة يخطوها الشعب نحو حقه ، اذ يجعل منه مصدر السلطات . لقد قتل مدحت باشا مخنوقا في بلاد الحجاز ايام حكم السلطان عبدالحميد .

وظهر سعد زغلول في مصر وهو من اعلام الحرية الكبار . استطاع ان يصل الى البرلمان ويتزعم الاكثرية فعهد اليه الملك فؤاد بتشكيل الوزارة عام ١٩٢٤ . كانت تلك مبادرة طيبة لم تتكرر فيما بعد .

وفي العراق ظهر الجادرجي وهو الرائد الاول للديمقراطية ، سلخ نصف قرن من حياته محاولا زحزحة الصخرة الثقيلة الجاثمة على صدر الشعب ، وقد قضى الجادرجي نحبه والصخرة لم تتزحزح قيد انملة . حتى ان نوري السعيد حل المجلس لان الجادرجي انتخب عضوا فيه .

★ ★ ★

كان الناس يرون كل يوم الى الحكيم وهو يتخذ سبيله الى قصر السلطان متأبطا بعض الكتب وحاملا اوراقا شتى في محفظة من الجلد . وسرى بين الناس نبأ يقول : ان كل شيء سيكون على ما يرام وان عهدا جديدا سينبثق من حطام الحياة الحاضرة وان الآلام والمحن واسترخاص ارواح الناس ستولي الى غير رجعة . وكان بعض الخبثاء يتندرون على الحكيم فيقولون مازحين عندما تقع انظارهم عليه وهو في طريقه الى قصر السلطان « ان المعلم في طريقه الى التلاميذ » وغالى بعضهم في المزاح حتى انهم رسموا السلطان في هيئة تلميذ طائش مغلق الفهم يتلقى تأديبا بالعصا على يدي المعلم الحكيم وغدا بعض الآباء يؤدبون اطفالهم قائلين لهم « انكم لستم افضل من السلطان الذي يؤدبه معلمه على نحو اقسى » .

اما الحكماء الذين احجموا عن تلبية رغبة السلطان خوفا على حياتهم فقد شعروا بالندم والخسران على ضياع فرصة لا تعادلها فرصة وسمحوا لانفسهم ان يتقدمهم معلم صبيان مغمور الاسم تافه الشأن ليكون مستشارا وحكيما للسلطان . بدأت عقارب الغيرة تدب في صدورهم حتى انهم كرهوه وشتموه واوعزوا لصبيان الازقة ان يقذفوا عليه الحجارة والوحل وان يحصبوا منزله . لقد قيل عنه انه يبث السموم في عقل السلطان وان السلطنة ستنتهي الى معبد من معابد الاوثان وان الاخلاق في طريقها الى الانحلال وانه سيغرق البلد في بحر من الدماء وانه سيهدم المعتقدات والمقدسات والمحرمات ولسوف يشعلها نارا يأكل اخضرها يابسها وان ثمة كارثة لا يعلم مداها احد سوف تلم بكل بيت فتجعله قاعا صفصفا تنعق فيه الغربان .

والحقيقة ان االقاءات التي تمت بين الحكيم والسلطان تناولت اسس الحكم الجديد وهي تأليف المجالس وتحديد سلطات السلطان وتعيين المصروفات والرواتب ونشر العدالة والمحبة والمساواة وفسح المجال لكل ذي رأي ان يقول رأيه . وفي خلال هذه المحادثات تحدث الحكيم عن ارسطو وافلاطون والفارابى وتوماس مور وابن خلدون فاوضح السلطان اعمالهم وافكارهم فانتهى كلاهما الى اقرار الكثير من الحقائق التي لا يمكن نسيانها او تجاهلها . الا ان الوشاة تألبوا على الحكيم وحاكوا عليه الدسائس فاستأجروا القتلة والمجرمين فتسللوا الى منزله ليلا واقتحموا مكتبه وطعنوه بالحناجر حتى مات ثم حملوا جثمانه الى المكان الذي علقت فيه مخططات المستشارين واشعلوا النار في اثاثه ومكتبته حتى غدت رمادا .

ومع الفجر سرى النبأ بين الناس يقول ان الحكيم قد قتل وان جثمانه مسجى االحظة في ساحة المدينة فهرع الناس بين مصدقين ومكذبين فكان النبأ صادقا . لقد مزقت امعاء الحكيم وشج رأسه وحوله اوراق كثيرة ممزقة وملطخة بالوحل كانت كلها تحمل كتاباته . وبلغ النبأ مسامع السلطان فانتفض مذعورا وكاد يجن من الغيظ ، فأمر في الحال البحث عن قتلة الحكيم واعدامهم في

ساحة المدينة ، ولكن لم يلق القبض على احد فجن جنونه ولم يدر ماذا يفعل لقد عجزت شرطته وجواسيسه عن العثور على القتلة وكأن يدا غير منظورة فتكت بالحكيم ومثلت به . وجد نفسه وحيدا في قصره من غير رفيق وجليس فاعلن انه بحاجة الى مستشار عظيم يخلف الحكيم القتيل فلم يلب احد الطلب ومضت الايام من غير طائل فازدادت الامور تعقيدا وخيمت حالة من الفوضى على البلاد كلها راجت في اثنائها شتى الاقاويل والحكايات . لقد قيل ان المستشارين الثلاثة الذين عزلهم السلطان كانوا ضحية وشاية خسيسة ومؤامرة دنيئة وكل ماقيل عنهم كان مجرد اكاذيب ومفتريات روجها الطامعون والحاسدون والكارهون للاستيلاء على عقل السلطان . وبلغه نبأ آخر يقول ان المستشارين الثلاثة ومع زوجاتهم واولادهم وخيولهم وكلابهم يقيمون في الطابق الارضي من القصر وهم يخدمون كما يخدم هو نفسه .

استشاط السلطان غضبا وقام من فوره ليرى مدى حقيقة هذا النبأ . مضى الى السراديب التي تقع في الطابق الارضي وكانت مخصصة لحفظ المؤونة واقامة الحرس وخزن الاسلحة ، وجدها غاصة بالصناديق والاطعمة والاسرة . وجد مستشاريه المعزولين الثلاثة يقتعدون على افخم الارائك ومن حولهم نساؤهم واولادهم وحتى كلابهم وخيولهم ومعهم كل مجوهراتهم الغالية وحتى الرضيع ينعم في مهد من ذهب ، واذ ما وقعت ابصارهم عليه لم يفزعوا ولم يسترحموا ولم يطلبوا عفوا او غفرانا ومضوا الى ما هم فيه من شؤون وامور وبمنتهى ضبط النفس وهدوء الاعصاب . حتى ان الكثير من خدم القصر وحراسه كانوا يقومون بالخدمة ، وبعضهم كان يحمل الاطفال بين ذراعيه وينقل الماء وصحون الاطعمة كأي خدم مطيعين مأجورين . فكر السلطان هنيهة وقال يحدث نفسه « ان هؤلاء كلهم جواسيس » فأمر باعتقالهم على الفور ثم جرى تفتيشهم فاذا جيوبهم ملأى بالرسائل والمخابرات بين المستشارين وعدد من وجهاء البلاد المعروفين بالقوة والبأس وكثرة الانصار ، وجميع هذه الرسائل والمخابرات تتحدث عن

النوايا المبيتة لقتل السلطان وتنصيب سلطان آخر .
كانت هذه اعظم صدمة في حياته نزلت عليه نزول الصاعقة المرعبة فقعد مهموما كئيبا من غير انيس ولا نصير يقلب وجوه الرأي دون ان ينتهي الى قرار مأمون . فكر ان يبطش بهم جميعا وتكون مجزرة لا اول لها ولا آخر فخشي عاقبة هذا الصنيع لئلا يضيع حكمه وفكر ان يتصافح ويتهادن ولكنه خشي ان يحسب ضعيفا فتكون البلية اكبر وانتهى الى قرار معتدل هو ان يسترضيهم ويسوي المسألة على نحو ما ريثما يمر بعض الوقت فيفتك بهم واحدا بعد واحد . ولكم تمنى ان يكون الحكيم حيا ليهديه سواء السبيل .
كانت الامور تتعقد يوما بعد يوم بل ساعة بعد ساعة فقد توالت الاخبار تقول : ان ثمة دعوة تنادي بعودة المستشارين الى مناصبهم ورد الاعتبار اليهم . وتقدم وجوه البلد بالتماس فيه معنى التحذير يطالبون بعودة المستشارين الى مناصبهم وتجمهر عند ابواب القصر عدد من الرعاع المساكين المهلهلي الثياب يهتفون بعودة المستشارين الى مناصبهم وتضخمت هذه الدعوة حتى بلغت كل اذن وغدا الناس يتساءلون متى يعاد المستشارون الى مناصبهم حتى قبل ان يتبادلوا التحية ، وما هي الا ايام حتى ساحت السلطنة من ادناها الى اقصاها صيحة واحدة « نريد عودة المستشارين الى مناصبهم » .
عجب السلطان ان تتغير طبائع الناس في أيام . لقد طالبوه قبل اليوم بإعدام المستشارين وهم الذين احرقوا بيوتهم واثاثهم وكادوا يفتكون بهم جميعا لو لم يهربوا وقد هم باصلاح احوال هؤلاء الناس بما لم يحلموا به من قبل ، لقد اعتزم ان يجعلهم هم انفسهم مستشارين وخطا خطوات طيبة في هذا السبيل واستعان بحكيم لا يملك من الجاه والثراء غير علمه وهو فرد منهم تطوع ان يخدمهم وينصرهم ولكنهم قتلوه واحرقوا بيته وها هم الآن يطالبون بعودة الجزارين واللصوص والقتلة الى مناصبهم الكبيرة كي يقتلوا ويسرقوا باكثر مما فعلوا في ايام والده .
لقد هبت العاصفة في وجهه وليس من سبيل الى اتقاءها ،

اما ان يهرب واما ان يستدعي المستشارين ويساومهم ويسترضيهم . لقد امسى قصره محاصرا بالوف الناس يصرخون على وتيرة واحدة « نريد عودة المستشارين الى مناصبهم » وهم على اهبة اقتحام القصر وحرق ما فيه عند ذاك اصدر السلطان البيان التالي :

« لقد نقل الي اهل السوء اخبارا ملفقة كاذبة تمس مكانة واحترام المستشارين الذين خدموا باخلاص هذه البلاد مدة طويلة وافنوا فيها زهرة حياتهم من اجل اسعادها ورقيها . وقد كادت البلاد ان ترتمي في دوامة الفوضى والخراب لو لم اكتشف في الوقت المناسب المؤامرة الدنيئة التي دبرها الفاسدون والمرتشون لاحداث البلبلة والشغب . وانني استجيب بكل سرور وطيبة خاطر لنداء الشعب العظيم الذي اثبت اصالة رأيه وقوة عزيمته وايثاره الحق على الباطل لدعم هيبة الحكم واسداء النصح لي بالذات . انني اعاهدكم بتنفيذ كل ما ترغبون فيه طالما فيه الصلاح والخير . لذا فقد امرت باطلاق سراح المستشارين فورا وعودتهم الى مناصبهم ورد الاعتبار اليهم وتعويضهم عن الاضرار التي لحقتهم وقد امرت ان تبنى لهم ثلاثة قصور افخم من قصورهم التي احرقها السراق وقطاعو الطرق ويستطيع الآن كل منكم ان يعود الى بيته وعمله وهو مطمأن النفس مرتاح البال والسلام عليكم » .

وما ان اذيع هذا البيان حتى انجلت الغمة وتلاشت اللوعة وهدأت الخواطر وطابت الانفس . فاولمت الولائم ونحرت الاغنام واقيمت الافراح بهذه المناسبة العظيمة وقد شعر كل انسان في البلاد انه منتصر فرض ارادته بقوة على شخصية السلطان العظيم وذلك باطلاق سراح ثلاثة دجالين لصوص ليحكموا ويظلموا ويميتوا الانفس . وقعد السلطان مبهوتا شبه مخبول غير قادر على فهم الاحداث التي وقعت له .

فــروة الاســـــــد

في ايام حكم السلاطين لعباد الله اعتزم احدهم اقامة حديقة للحيوانات في المدينة لامتاع الناس وتلهيتهم . جلب عــــددا من القرود والثعالب والارانب والذئاب والخنازير والاوز والطيــــور والطواويس وما الى ذلك من حيوانات اخرى الممكن نقلها وحملهـــا من اقطار العالم ،وكان في الحديقة ايضا حيوانان هامان هما الاسد والنمر حظيا اكثر من سواهما باهتمام الزوار لاشتهارهما بالقــوة والشجاعة والبطش . كان يقوم على رعاية كل منهمــا خادم خاص انيط به واجب تقديم الطعام والشراب ومراقبة صـــحة الحيوان ونشاطه والتحدث الى الزائرين عن خصاله وافعـــاله ، وكان كل خادم يتقاضي راتبا حسنا من جراء خدمته وسهره ورعايتـــــه للحيوان الثمين النادر . كان الاسد في جانب والنمر في الجـانب الآخر لتاصل العداوة بينهما .

وحدث كما يمكن ان يحدث للنـــــاس والحيوان ، ان مرض الاسد وبانت عليه عوارض الهزال ، فصار يقضي معظم نهاره قابعـــا على الارض من غير حراك فجلب ذلك انتباه الزوار فاحتار الخادم كيف يفسر سلوك الاسد . خشي ان يقول انه مريض لئلا يكون ذلك فاتحة لموته فيفقد وظيفته المعلقة بحياة الاسد ، فكان ينتحــــل لاسده المعاذير فيقول انه يجول ويصول في قفصه طوال الليـــل ويزأر زئيرا مرعبا تنخلع له قلوب الحيــــــوانات الضعيفة فتكاد تنصعق من هوله ورعبه واذا ما لاح النهار يلوذ بالصــــمت مؤثرا الراحة والنوم .

هذه الاكذوبة فعلت فعلها طوال شهرين الا أن الاســـــد لم يستعد نشاطه ولم يشف مما الم به من داء فغاصت عيناه ووهنت عظامه وكان لابد للقضاء ان يقضي حكمه ، وما الاســـد الا مخلوق يحيا ويموت وقد دنت ساعة موته . انخلع قلب الخادم وتراءى له المصير المحزن الذي ينتظره اذا فقد رزقه وغـدا عاطلا ، اذ ان من

المستبعد ان يأتوا بأسد جديد قبل مرور عام او نحوه وقد لا يعين هو نفسه لخدمة الاسد الجديد ، فراح يقدح زناد الفكر ويضرب اخماسا بأسداس للتأني للمشكلة التي داهمته واقضت مضجعه ، ولكنه لم يوفق الى حل ، الا ان خاطرة لمعت في ذهنه عندما ابصر برجل رقيق الحال عاطل يرتاد الحديقة لقتل الوقت والاستلقاء على الحشائش بدل الجلوس في المقهى . كان ذلك الرجل هو جميل افندي . دعاه الخادم واختلى به في احدى الزوايا وروى له خبر الاسد المريض الذي يوشك ان يقضي نحبه خلال ايام وانه سيفقد وظيفته من جراء ذلك ، فابدى جميل افندي تأسفه وحزنه اذ كان الاسد ينعم بوجبات طعام دسمة كبيرة وكانت شرائح اللحم تدخل فكيه فيبتلعها في نهم وشراهة حتى ان جميل افندي يتمنى ان يكون له بعض هذا اللحم يسد به رمقه ورمق عائلته .

اقترح الخادم قائلا « ماذا تقول يا جميل افندي لو ألبستك فروة الاسد الميت وكنت في مكانه في القفص فيتفرج عليك الناس ويحسبونك الاسد وتنعم بوجبات الطعام حتى تصيبك التخمة ؟ » انفرجت اسارير جميل افندي وتمتم في دهش « اكون انا الاسد ويكون طعامه لي ... هذا شيء عظيم وفوق ما يحتمله حظي العاثر » .

طمأنه الخادم « سيكون الطعام كله لك وان شئت حملت بعضه الى عائلتك » .

هتف جميل افندي في غمرة فرحه « سآكل القليل واطلب اليك ان تبعث الباقي الى زوجتي واولادي كي تسمن اجسامهم وتتورد خدودهم ويعلمون ان في الدنيا اناسا يأكلون اللحم حتى يضجروا منه » .

وراح جميل افندي يتخيل مبلغ النعمة المقبل على نوالها ويتخيل منظر زوجته واولاده وهم عاكفون على التهام شرائح اللحم يمضغونها ويتذوقون لذتها حيث لا يستبدلها الجزار بأقل من دينار واحد .

وكان ان قضى الاسد نحبه قبل مطلع الفجر بساعة واحدة فتسلل الخادم وجميل افندي الى قفصه واخذا يسلخان فروته

من البطن ونزولا الى الاقدام الاربعة مع الاحتفاظ بالرأس والذيل على هيئتهما ومظهرهما . وبعد اكثر من ساعة استخلصت فروة الاسد كقطعة كاملة افرغت على جسد جميل افندي فراح يغدو ويجيء في القفص وكأنه اسد منذ ان ولدته امه ، وعندما اصبح الصباح توافد المتفرجون فرأوا خلف القضبان حيوانا هو الاسد بهيئته وفروته ورأسه وعينيه يزأر ويهمهم ويرعب الاطفال ويخيفهم . واثناء وجبات الطعام صار الخادم يبعث كل يوم بنصيب الاسد الى عائلة جميل افندي ويستبقي له كمية مناسبة لغذائه ، وعندما سأل اولاد جميل افندي عن المكان الذي يشتغل فيه والدهم قيل لهم انه مكان بعيد ومن مكانه ذاك يبعث اليهم بالطعام فصدقت العائلة الجائعة اذ كان يهمها الطعام اكثر من جميل افندي نفسه . اخذوا يزدردون اللحم في كافة الوجبات . مرة مشويا واخرى مقليا وتارة اخرى على هيئة كباب وعروق وتشريب . يأكلون حتى يتخمون ثم يوزعون ما يفيض بين ايديهم على الجيران والاهل فيدهشون لهذا الخير العميم الذي اصاب عائلة جميل افندي الموصوفة بالجوع والبؤس والحرمان .

بعد مرور عدة اشهر على وفاة الاسد بانت عوارض المرض على النمر ، فانطرح طول الوقت على الارض هزيلا متعبا فاقد الهمة والنشاط فخاف خادمه ان يموت فيفقد مورد رزقه ففكر وفكر حتى انتهى الى تدبير مماثل ، اذ وقعت عيناه على رجل من العاطلين الذين يرتادون الحديقة للتسكع وقتل الوقت اسمه سليم افندي . حدثه الخادم حديث النمر المريض الموشك على الموت وحديث رزقه المهدد بالضياع اذا وقع المحذور ولم يتلطف الله بعبده . فجرى الاتفاق بين الاثنين ان يلبس سليم افندي فروة النمر الميت ويحشر جسده في القفص ويتناول وجبات طعام دسمة على ان يرسل اللحم المخصص للنمر الى عائلة سليم افندي فتحيا في بحبوحة اللحم زينة المأكولات ومتعة البطون .

انتهى الوضع ان يكون بالشكل الذي اريد له ان يكون فقد اصبح في حديقة الحيوانات اسد مزور ونمر مزور والناس من

حولهما لا يعلمون شيئا عن امرهما وسرهما ، يدخلــون ويتفرجون ويأنسون ويلهون دون ان يخطر ببال احد ان الاسد هو انســان اسمه جميل افندي وان النمر هو انسان آخر اسمه ســليم افندي وان كميات كبيرة من اللحم تاخذ طريقهــا الى العائلتين البائستين باكثر مما في ميسور اسنانهم ان تمضغ وتلوك .

مضى الزمن حتى اوشكت السنة الواحدة ان تختتم ايامها ، فمر ذات يوم السلطان بأسوار الحديقة فرأى لدى الباب جمهرة من الناس يتدافعون للدخول . وكان مع السلطان زوجتــه واولاده ، فسأل بعضهم عن هــذا المكان فقيل له انه حديقة للحيوانات فتصايح اولاد السلطــان راغبين في التفرج وكذلك فعلت زوجته فلم ير من المناسب ان يحجب هذه المتعة الرخيصة عن عائلته وهو سيد المدينة ومولاها وحاميها . فامر مرافقيه ان يخلو الحديقة من المتفرجين ويفسح المجال للسلطان وعائلتــه وحاشيته . وما هي الا دقائق حتى اشهرت الهراوات الثقيلــة لطرد الناس وابعادهم فتقدم السلطان ودخل الحديقــة وهو في هيئة اختصار كما يقول الرحالة ابن جبيــر . واول ما صادفهم هو الاسد فامعنوا فيه النظر فأفزعهم رأسه الكبير الغائر في لبدة الشعر ووقفته المتعالية وعينيه الصارمتين الحزينتين وخطواتــه الرشـــيقة الذي وصفها المتنبيء قائلا : يطأ الثرى مترفقــا في تيهه فكأنه أس يحس عليلا ! وانتهت زيارة السلطان برؤية النمر الهائج العاوي المكشر الانياب . تصايح الاولاد راغبين ان يشهدوا معركة بين الاسد والنمر فاستحسن السلطان هــذه الفكرة وامر بتنفيذها في الحال ليرى ايهما افتك واشرس لو التقيــا طلقين في حلبة الصراع . فتقدم خادم الاسد وخادم النمر للمثــول بين يدي السلطان وهما مشدوهين مصعوقين يضرعان اليــه ان يعدل عن هذه الفكرة التي قد تؤدي الى مصرع احــد الحيوانين او الى مصرع كليهما . فاصر السلطان ان يشهد المعركة في الحال فانهمرت الدموع من عيني الخادمين ورثى كل منهما صديقــه الذي سيكون بعد دقائق اشلاء بين فكي الوحش الكاسر .

وفي الحال نصبت حلبة واسعة مسورة ادخل اليها الاســد

ثم جيء بالنمر فادخل اليها كذلك وشخصت الابصار الى المعركة الدموية المرتقبة . مرت لحظات دون ان ينتفض احدهما على الآخر فحبس النظارة انفاسهم انتظارا للحدث الكبير ولكن ليس ثمة حدث كبير ولا صغير . راح كلا الحيوانين او الانسانين ينظر في عيني الآخر بامعان وتفحص كمن يشك ويستريب محاولا ان يدرك ما وراء هذه الفروة واذ ما عرف كل منهما صاحبه استعادا ثقتهما وزايلهما الكرب والغم . فتقدم جميل افندي في مشية اسدية رائعة ولصق فمه في اذن سليم افندي هامسا في زمجرة مفتعلة « لا تخف انني جميل افندي » فرد عليه سليم افندي في تكشيرة رائعة « وانني سليم افندي » فشرع كلاهما يمثل دوره . تصارعا وتلاعبا ، زمجرا وكشرا وعض احدهما الآخر في بطنه وظهره دون ان تسفك قطرة دم واحدة من احدهما لقد كانا اشبه بالشقيقين اللذين يتخاصمان على الحاوى .

سأل احد افراد الحاشية عن سر تآلفهما وهما حيوانان موصوفان بالشراسة والضراوة وحب الدم وكان من المنتظر ان تقع بينهما معركة مميتة فرد الخادمان وقد هدأ روعهما واطمأنت نفساهما انهما صديقان حميمان يتناولان طعامهما من مكان واحد ومن مصدر واحد وهما ايضا على مذهب واحد .

وعندما انصرف السلطان رقص جميل افندي وسليم افندي أبدع رقصة في حياتهما هي رقصة التمثيل الذي لا يفطن اليه حتى السلطان نفسه .

جنـــود الســـلطان

من ظرائف قصص التأريخ التي تروى ايام تحكم الســلاطين في رقاب عباد الله . كان من المألوف ان يستخدم السلطان عددا من رعيته الاشداء الاقوياء لحمايته والدفاع عنه وتأمين سلامــة نسائه واولاده وملكه وثروته ومزارعه .

كان هذا العدد موصوفا بالبسالة والاقدام والشراسة والفتك وقوة البأس . ويتمتع جميعهم بقوة عضاية هائلة . قامات مديدة واذرع طويلة مفتولة وسيقان رشيقة مكســـــوة بلحم غليظ كسيقان العتالين ، ولهم مهارة فائقة في رمي النبال وقطـــع الرؤوس بالسيف وتمزيق الاحشاء بالسكاكين ومصارعة الوحش الكاسر ان كان دبا أو سبعا .

كان السلطان يجلس في الامسيات في شرفة قلعته محاطـا بالجواري الحسان المجلوبات اليــه من بلاد فارس والروم ومن الشبركس والكرج ومن قندهار وبخارى وسمرقند وبعضهن مهدى اليه من اتباعه وقواده وحاشيته وذلك لنوال الحظوة والجـــاه وارتقاء المناصب لنهب اموال العباد والتحكم في ارزاقهم كمـــا يشاؤن وكما يشاء لهم الهوى .كان يتصدر جواريه بابهة وغطرسة فيدلكن ذراعيه ويسوين الطنافس عند رأسه وعجيزته ويتمسحن بأرديته لعله يفطن الى جمال احداهن فتظفر برضاه وبمودتــه . وكن يتناوبن على تحريك مراوح ريش النعام فوق رأسه ليأتيــن اليه بالنسيم البارد المطيب بربا اشجار الكمثرى والتفاح .

ينظر السلطان بعيدا فلا يكاد بصره ينتهي الى نهاية ملكـــه فيداخله الزهو والفخر ، ثم يميل الى طعامه وشرابه فيتنــــاول الحلو والدسم والموز والجوز ليغذي جسمه ويقوي جنانـــــه وينشط الدم في عروقه لئلا تضيع ليلة من عمره دون ان يلامس جارية جديدة ترشقه بلحاظ الود وترجو عطفه واحسانه ان يكون ضيفها ليأنس بجسدها الغض البض الذي دلكتــه بالحليب حتى

امسى حريرا وارق من الحرير .

كان يقدر ثمن المرأة الجميلة المشتهاة رغم انه قد شبع حتى عافت نفسه الجمال ، ولكن الجمال هو الشمس وهو المطر فلا يبلغ المرء من ادراكهما شبع ، فما ان قضى وطره من البيضاء ، والشقراء ، والصهباء ، حتى مالت نفسه الى السمراء ، الفطساء ، الدعجاء ولكل سحره ونضارته ومعناه . كانت اسوأ جواريه غيداء خريدة لو خرجت الى السوق لتبعها مئة رجل يضع على رأسه عمامة الوجهاء .

كان الشعراء يطرقون بابه ليل نهار يأتون بقراطيس طويلة يتلونها عليه في رهبة وخشوع . كانوا غواصين عظام في التقاط خير الاوصاف والمحاسن والتشابيه ليقولوا بعد ذلك ان السلطان عفيف حكيم لا يأتيه العوج من بين يديه الا من خلفه ، فهو في العدل أعدل العادلين وفي الورع شيخ الزهاد وفي الشجاعة اشجع الشجعان وهو الملهم والمدبر والعزيز ثم لا يتكلف السلطان من كل هذا المديح غير قطعة صفراء او بيضاء يلقي بها وكأنها كسرة خبز جافة يزهد الجرذ في قضمها .

واذا ما انقلب السلطان الى مكتبه لقي الجباة والمحتسبين قد تحملوا بالحمول ، جالبين اليه حصيلة الاتاوات والضرائب اغتصبوا اكثرها عنوة من عباد الله حتى عز بينهم الرغيف وشح على ابدانهم القميص .

وذات يوم لمح السلطان رجلا من جنوده الاشداء يسرح الطرف في جارية عتيقة من جواريه انتهت الى ان تكون من خادمات المطبخ . كان يبدو وكأنه يغازلها ويتشهاها ، فوجد السلطان ان من اللائق ومما تفرضه وجائب السلطان التي لا يحد مداها حدود ان يؤدب الرجل ، فأمر بجلبه ومحاكمته ثم اصدر حكما روعي فيه العطف ان يجلد مئة جلدة على مرأى من جواريه كي يحترسن من نظرات الرجال ولتمتليء نفوسهن احتقارا لهم وهم يجلدون على نحو مهين .

جيء بالرجل وهو مشدود الوثاق يتململ ويقاوم في عنف حتى استطاع ان يطرح ارضا ثلاثة رجال فإستاء السلطان من

تمرده وعصيانه فأمر ان يكون الجلد حتى الموت . وفعلا نفـــذ الحكم على نحو مؤلم موجع فقد سالت دماء الرجل المعذب قطرة قطرة وتسلخ جلده وانهرى لحمه وتصاعد انينه الخافت زهـــاء ساعتين حتى فقدت بعض الجواري رباطة جأشهن واغمى عليهن وهربت الاخريات نادبات مولولات وارتسم الاسى والحقـــد على وجوه الرجال جميعـــا حتى ان الجلادين احتقروا انفســـهم وزمجروا غاضبين .

وبعد انقضاء عدة اشهر على الحادث ، اخــــذت الوساوس تنهش قلب السلطان وتعذبه وتؤرق منامه فعنـــدما يجلس في الشرفة ويسرح بصره في جنوده الاشداء لم يستشعر الاطمئنان الذي كان يستشعره من قبل ، فكأن في صدورهم غل ما يوشك ان ينفجر وان ميتة ذاك الجندي ما زالت عالقـة بخواطرهم وان دمه المسفوح يذكرهم في كل لحظة بالانتقام .

وجد السلطان آخر الامر الا مناص من اصطناع سبيل ما يأمن به شرهم ويديم ولاءهم ويخمد من حدة ابصارهم الى جواريـــه الحسان . امر على نحو رقيق وتحت شعار موهوم من رفـــع معنوياتهم وادخال الســـرور الى قلوبهم وتقـــوية اجسادهم والمحافظة على طاقاتهم الابداعية ، ان يؤتى اليه كل يوم بعدة انفار منهم فيستقبلهم في قصره ويغدق عليهم الطعام والشراب ويبذل لهم المسكرات والمخدرات حتى يغيبوا عن الوعي ويتمددوا كالموتى بين الكأس والطاس ، ثم يجري عليهم عمليـــة الاخصاء على ايدي امهر الحاذقين وهم متلذذين هانئين . وبعد مضي عدة اشـــهر تمت عمليات الاخصاء لهم جميعا بلا استثناء فعاوده الاطمئنـــان وشعر بالامان يرفرف في سماء حياته ولم يخش مكروهـــــا او يتوقع شرا .

كان جنوده يغضون الطرف اذا ما التقوا بجارية وان كلمـت جارية احدهم تلجلج لسانه وســـــمر انظاره بالارض في عفة وبراءة وخنوع . لاحظ السلطان بعدم اكتراث اثار الكســـل بين الجنود واكتساء محياهم بصفرة باهتة وخمود البريق في اعينهم وميلهم الى الانطواء والعزلة والمبالغة في الطاعة والانصياع لاتفـــه

الاوامر وان كانت مجانبة للعقل ويقتضي اداؤها اهدار للكرامة . الا ان اجسادهم حافظت على ابعادها في الطول والعرض وكثافة الشاربين وهذا ما افرح السلطان وزاده ثقة في حكمته وصواب آرائه وحسن تدبيره ، فأمعن في لهوه لا يقلقه هاجس ولا ينتابه خاطر يفسد عليه عبثه ومجونه ، فابتنى الى جانب قلعته مسابح وملاعب ومراقص لاقامة الحفلات والمباريات واستوصي جرقة الزمارين والطبالين ان تزمر وتطبل اناء الليل واطراف النهار لتشجيع الجواري على ارسال اصواتهن بالغناء كل بما تجيده من اغنيات بلادها ، فكانت اصواتهن الرخيمة تلتحم بأغاريد الطير ويتردد صداها المسكر اللذيذ بين الخمائل والاحراش حتى ليشتهي النوم اقدر الناس على مغالبة النعاس .

وكانت الجواري تمتدح سلوك الجنود وعفتهم ورقتهم ولطف شمائلهم حتى لا يضيرهن ثم يستحمن في البرك في وضح النهار او ان ينطلقن ضاحكات مقهقهات متدافعات .

وهكذا جرت الامور هادئة وديعة لا يكدر صفوها مكدر حتى بلغ السلطان ذات يوم خبر يقول ان سلطانا مثله وهو فتى طموح مقدام يسكن في الاصقاع النائية اخذ يزحف نحوه للاستيلاء على ملكه ، وانه يقود جيشا مدربا تختلط فيه النساء بالرجال . فتعجب السلطان ان تشترك النساء في حرب وهو كما عهدهن ربات خدور واسيرات قلاع وقطعان للطرب والايناس والمتعة . وبعد ايام صعد السلطان الى برج قلعته وهو يطل على مدى شاسع من الانجاد والاغوار لمح بالجيش المغير وهو يتقدم حثيثا وقد اوشك ان يقتحم اول الاستحكامات الحصينة ، فنزل منزعجا ودعا الى اجتماع جنوده ثم القى فيهم خطابا حماسيا تدفق من شفتيه كالموج . دعاهم الى الصمود والاستبسال والتضحية بالغالي والرخيص والجود بالارواح في سبيل تطهير ارض السلطان من ارجاس العدو وقذارته وامر ان تستباح دماؤهم وتستباح نساؤهم ويكونن سبايا لكل من تقع في يده من جنوده المقاتلين . وانتظر السلطان ان يفرح الجنود ويهللوا الا انهم تلقوا هذه الوعود ببرود وبلادة وعدم اكتراث فلم يكن من

بد امام السلطان الا استقدام البلغاء والفصحاء واهـــل الكلام ليخطبوا بالجنود ، فأتي بهم جميعا وتدفقت الخطب من افواههم وكأنها الحمم . دعوا الى استباحة نساء العدو وجعلهن اسيرات ومحظيات لمن تسح في يده . وكان اولئك البلغاء والفصحاء واهل الكلام يتقاضون أجورا عالية من السلطان حتى ناءت خزانتــه بمطاليبهم ولم يشأ امساك المال عنهم وهو في محنة كاسحة قــد تؤول الى تدميره وضياع ملكه .

وبعد ايام بدت طلائع العدو جلية للعيان يندفع في عـــزم وتصميم وقدرة يكتسح ما امامه من عقبات غير هياب ولا وجل . وكانت المرأة فيه كالرجل تحمل سلاحها وتتقدم في عزيمـــة ومضاء ، ولما التقى الجمعان تهاوت اجساد الجنـــود الخصيان كالقصبات المجوفة ، فمنهم من مات رعبا ومنهم من ولى فرارا .

لقد كان جيش السلطان خشبا مسندة وهياكل مجوفـــة واعمدة منخورة وهياكل مأروضة من غير دم ولا همة ولا حيـاة ولم يفطن السلطان ولم يفطن الخطباء والبلغاء واهـــل الكلام ان الجنود قد اعدموا الرجولة ولم يعد في ميسورهم حمـــاية جواري الســـــلطان .

* * *

السجن الجديد

كان الخبر السعيد قد انتشر في ارجاء المدينة منذ اشهر عديدة ، ذلك ان السلطان الرحيم القلب المهتدي بهدي ربه ، قد قرر بناء سجن كبير هائل الاتساع على بعد شاسع من المدينة ، روى المحدثون واولو الراي واولئك المتبحرون في كل علم ، هذا الخبر المنير اللامع في كثير من الاطناب والمديح ، قالوا : ان السجن سيكون حافلا بالملاعب والمنتزهات ، وان السجين سينطلق بين جدران السجن المتباعدة كما لو انه حصان يجري في سباق .

كانت الصورة القاتمة والمرعبة للسجن العتيق القائم في وسط المدينة قد تركت اباس الآثار في نفوس اجيال متعاقبة من الناس ، جلدوا وعذبوا وذاقوا الهوان ، وبعضهم مات على فراش المرض في غرفة مظلمة . والى كل ذلك فالسجن يواجه مقبرة كبيرة ومشرحة للموتى ومستشفى . ان الموت كامن في كل حجارة وفي كل ذرة غبار في المكان الذي يقع فيه السجن العتيق .

ان اتجاه نية السلطان السنية الى بناء سجن جديد ومريح في ظاهر المدينة قد اسبغ على القلوب جميعا فرحة بالغة . وفعلا باشر البناؤن بالبناء على ارض سلطانية لا يحد حدودها بصر ، فقد مضت الاشهر والجدار الواحد لم يتم تشييده بعد ، فقد امر السلطان البناءين ان يمدوا في طول الجدار حتى يأذن لهم بالكف والمباشرة ببناء الجدار الآخر ، وحدث ان انشغل السلطان بعض الوقت حتى تذكر ان ثمة سجنا جديدا يبتنى في ظاهر المدينة ، فقرر ان يذهب ويرى الى اي مدى انجز هذا العمل الكبير . لقي جدارا واحدا يمتد الى مسافة كبيرة فوق ارض خالية خاوية ، فأمر ان يلوى الجدار كما تلوى عصا الخيزران وتكون منه اربعة جدران . خشي البناؤن ان يعترضوا على استحالة هذا العمل فلزموا الصمت تظاهرا بالطاعة وباشروا ببناء ثلاثة جدران اخرى اقل ارتفاعا واخف سماكة وحشدوا على ارض صغيرة عدد من الثكنات الطويلة المتقارب بعضها الى بعض ثم نفد المال قبل ان تبنى الملاعب والمنتزهات ، فصرف النظر

عنها ، فالثكنة اهم من الملعب للسجين كما ان الخبز اهم للجائع من البرتقالة .

لقد تم بناء السجن بعد عدة سنوات من العمل المتواصل ، ثم نقل المساجين داخل عربات مقفلة ومحروسة بالجند اجتازت بهم شوارع المدينة بين التصفيق والهتاف وعلائم الابتهاج وكان ذلك اليوم يوم عيد حقا اذ خرجت من زوايا السجن العتيق وجوه مضناة مرهقة وقامات محدودبة وسحن يائسة قد ابلاها الظلام والحبس . ان بعض الاطفال ولوا فرارا خائفين مرتعبين وظلوا رهينة وهم كبير من ان يتسلل سجين ما الى مضاجعهم فيطبق اصابعه الرهيبة السوداء المبرثنة على اعناقهم .

كانت النوافذ اجمل ما في السجن الجديد ، فهي تيسر للسجين رؤية الفجر اللؤلؤي وخيوط الضياء الاولى ، وتسعده الاماسي حيث تتكاثف ظلمة الغسق وتدنيه الى الطبيعة بقمرها ومطرها وسحابها وضبابها . كانت عشرات الاميال امام الاعين ، تتحرك في جنباتها الركبان وقوافل الجمال والهائمون على وجوههم من بني الانسان والحيوان على السواء وكان النسيم الرقيق يهب في الليالي القائظة فيوحي للسجين انه نزيل قصر من القصور .

ونعم السجانون كذلك بمقام مريح ومشاهد خلابة وفضاء طلق فارتاحت انفسهم ورقت عواطفهم وحسنت معاملتهم ومالوا الى الايناس والملاطفة ، حتى ان احدهم ليتمنى ان يطول مقامه ولا يعود الى بيته الصغير المعتم الكائن في ازقة المدينة الموحلة . لقد حامت اعينهم على المساحات الكبيرة من الارض التي كان من المزمع ان تشيد عليها الملاعب والمنتزهات . تمنوا ان تشيد عليها بيوتهم ليكونوا على مقربة من مكان عملهم وليهنأوا بالراحة مثلما يهنأ المساجين ، فلا يصح ان يحيا السجين في مكان يقصر عن نواله السجان .

تقدم السجانون بطلبات الى السلطان يتضرعون اليه أن يهبهم بعض هذه الارض ليشيدوا عليها بيوتهم ولسوف يضاعفون خدماتهم للمساجين ويكونون اقرب مودة لهم . وجد السلطان ان

الفكرة لا تخلو من وجاهة فهي تساعد على التحابب والتعاون وازالة مشاعر التحكم التي يمارسها السجان عادة ضد السجين. فارتضى بالفكرة وامر ان توزع الارض لكل حسب حاجته وعدد عياله وتم بعد وقت وجيز بناء عدد كبير من الدور الجنائنية المريحة وما ان استقر بهم المقام حتى اخذوا بزراعة الاوراد والرياحين والاشجار اليانعة والمثمرة وكلما اعوز احدهم بعض امتار من الارض نقل اسيجة بيته الى بعد ابعد في غفلة من جيرانه حتى ان بعضهم هوى تربية الابقار والانعام والدجاج فاتى بها واطلقها ترعى الحشائش وتدر عليه الحليب والبيض واللحوم . ولما كان ادارة مثل هذا العمل الكبير يستدعي استخدام ايد ماهرة متدربة فقد اخذ كل سجان يستخدم عددا من المساجين يعملون في مزرعته كفلاحين ومربي ابقار ودجاج . كانت هذه الاقطاعات تكبر يوما بعد يوم حتى لم يبق شبر من ارض لم يغفل عنه السجانون فتجاوزت الاقطاعات بعضها بعضا ونشأت عن ذلك مشاحنات ومعاتبات كما تنشأ احيانا بين الدول المتجاورة بما يسمى بمنازعات الحدود . وقد وقعت فعلا خصومات ومعارك كلامية على ارض كان من المنتظر ان تكون ملاعب ومنتزهات المساجين .

وما ان مرت سنوات قليلة حتى ازداد عدد المساجين وازداد عدد السجانين فضاقت بالاولين الثكنات وضاقت بالآخرين البيوت والحدائق فأخذت المنازعات تنشب في الليل والنهار وسرت روح البغضاء والاثرة والحسد كما تضخمت النفقات المرصودة للسجن الى اضعاف مضاعفة ، فبلغت الانباء مسامع السلطان فاستشاط غضبا فاعتزم ان يتحرى السجن الذي غدا مباءة للمنازعات والخصومات . وجد السجن قد استحال الى بستان يزهو بالرياحين والاوراد وشتى الاشجار المثمرة تسرح في جوانبه الابقار والانعام وتفوتؤ فيه اسراب الدجاج وقد نعم السجانون في بيوت واسعة مريحة بينما احتشد المساجين في ثكنات قليلة متجاورة يعملون طوال النهار في خدمة السجانين وفي الليل يغادرون الى ثكناتهم وتقفل من دونهم الابواب .

تألم السلطان لحال المساجين ووجد ان كل ما فكر فيه من اجل اسعادهم قد ذهب هباء ولم يتحقق فيه شيء ذو بال فقرر ان يعاقب السجانين الذين افسدوا خطته واساؤا الى ببل مشاعره وحولوا السجن الى مزرعة تدر عليهم الثمر والحليب .

امر ان يلغى هذا السجن ويكون مزرعة قولا وفعلا يعمل فيه كل ما كان بالامس سجينا او سجانا وان تكون البيوت وكافة النعم والخيرات ملكا مشتركا وان يجري العمل اجماعيا وتعاونيا من دون سيد ومسود وان يتبوأ مناصب القيادة والتوجيه اكثرهم تجربة وخبرة واحذقهم دراية ومهارة . وقد طبق هذا الامر دون امهال فاقبل الجميع على تأدية اعمالهم الزراعية ، الا انه تبين بعد حين قصير ان الايدي الخشنة المعتادة على حمل المحاريث وتنمية الاوراد وتربية الدواجن كانت اكفأ من الايدي المعتادة على حمل العصي والاقفال ، فتبوأ المساجين مكان الصدارة وتخلف السجانون الى وراء فعهدت اليهم الاعمال الثانوية وانتزعت منهم بيوتهم وابقارهم .

بدأ الحقد يعتمل في نفوسهم ، لقد انطرحوا في زوايا النسيان خائبين تافهين وذهب كل ما كان لهم من اعتبار وتجردوا من ملابسهم الانيقة واستعاضوا عنها ببدلات المزارع العادي وافظع من كل هذا اصبحوا يتلقون الاوامر والنصائح ممن كان بالامس رهين زنزانة خربة مظلمة يركع على ركبتيه طوال النهار مستجديا منه العطف والرحمة لئلا يقسو عليه بالعصا . .

غلا الحقد في نفوس السجانين وليس من بد الا ان ينفجر ذات يوم . اخذ بعضهم يتسلل الى مشجب السلاح تحت جنح الظلام فيسرق بندقيته التي كان يتنكبها ايام مجده ثم يهرب وقد فعل ذلك كلهم وشكلوا فيما بينهم عصابات للتخريب واول ما حالوا تخريبه هي مزارع السجن نفسها فاستعد لمجابهتهم المساجين فامسكوا بهم واحدا بعد واحد واودعوهم في ثكنة صغيرة واحدة بينما تحولت الثكنات الاخرى الى قاعات للدرس ومعامل للحياكة والنجارة والحدادة . وبعد عشرين سنة من هذه الاحداث تحول مبنى السجن الى جامعة ومن تلاميذ هذه الجامعة اولاد مساجين الامس واحفادهم .

كتب للمؤلف

١ ـ حصاد الدموع	اقاصيص	١٩٥٢
٢ ـ المامور العجوز	اقاصيص	١٩٥٣
٣ ـ قافلة الاحياء	اقاصيص	١٩٥٤
٤ ـ كاتب واردة	اقاصيص	١٩٥٥
٥ ـ الهارب من المقهى	مسرحيات	١٩٥٥
٦ ـ خيبة امل	اقاصيص	١٩٥٦
٧ ـ سعيد افندي	اقاصيص	١٩٥٧
٨ ـ الخالة عطية	قصة طويلة	١٩٥٨
٩ ـ في خضم المصائب	اقاصيص	١٩٥٩
١٠ـ الست حسيبة	مسرحية	١٩٥٩
١١ـ هارب من الظلم	اقاصيص	١٩٦٠
١٢ـ ليلة مزعجة	اقاصيص	١٩٦١
١٣ـ خبز الحكومة	اقاصيص	١٩٦١
١٤ـ زوجة المرحوم	قصة طويلة	١٩٦٢
١٥ـ اديب من بغداد	مسرحية	١٩٦٢
١٦ـ محكوم بالاعدام	مسرحية	١٩٦٣
١٧ـ ايام العطالة	مسرحية	١٩٦٧
١٨ـ عندما تكون الحياة رخيصة	اقاصيص	١٩٦٨
١٩ـ حكايات عن السلاطين	اقاصيص	١٩٦٩

* * *